مدخل لدراسة الفرق

رقم المقرر : ٦٠٣١٥٠

جمع وترتيب د. صالح الدميجي
مدرس المقرر : د. خالد الدميجي

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف الافتراق والأهواء والبدع[١]

أولا: الافتراق تعريفه:

الافتراق فى اللغة: خلاف الاجتماع قال الله تعالى: **(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)**[٢].

"والتَّفرُّق والافتراق سواء. ومنهم من يجعل التفرق للأبدان، والافتراق فى الكلام، يقال: فرقت بين الكلامين فافترقا، وفرَّقتُ بين الرجلين فتفرقا"[٣].

الافتراق فى الاصطلاح: .. الافتراق فى الشرع يطلق على أمور:

١. **التفرق فى الدين،** والاختلاف فيه، ومن ذلك قوله تعالى: **(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)**. وقوله، صلى الله عليه وسلم:**(تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو ثنتين وسبعين فرقة..)** الحديث[٤]، وهو الاختلاف فى الأصول، واختلاف التضاد المؤدى إلى التنازع فى الدين والخروج عن السنة.

٢. **الافتراق عن جماعة المسلمين،** فى أمر يقتضى الخروج عن أصولهم فى الاعتقاد أو الشذوذ عنهم فى المناهج، أو الخروج على أئمتهم، أو استحلال السيف فيهم، فهو مفارق. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: **(من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه)**[٥]. ولفظ مسلم: **(من خرج من الطاعة وفارق الجماعة، ثم مات، مات ميتة جاهلية، ومن قُتِلَ تحت راية عمية، يغضب للعصبية، ويقاتل للعصبية فليس من أمتى، ومن خرج من أمتى على أمتى، يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفى بذى عهدها فليس منى)**[٦].

وقد ذكر أصنافاً من المفارقين الخارجين وهم:

١. المفارقون للجماعة.
٢. والخارجون من الطاعة.
٣. والخارجون على الأمة بالسيف.
٤. والمقاتلون تحت راية عمية وهو الأمر الأعمى الذى لا يستبين وجهه، ومنه قتال العصبية، وقتال الفتنة، ومنه القوميات والشعارات والقبليات، والحزبيات ونحوها. كل ذلك داخل فى المفارقة والأهواء.

وكل هذه الأصناف وجدت فى أهل الافتراق والأهواء والفرق المتفرقة المفارقة.

والتعريف الشامل للافتراق: .. هو الخروج عن السنة والجماعة فى أصل أو أكثر من أصول الدين الاعتقادية منها أو العملية أو المتعلقة بالمصالح العظمى للأمة، ومنه الخروج على أئمة المسلمين وجماعتهم بالسيف.

وأهل الافتراق: .. هم الفرقة المفترقة عن طريق السنة والجماعة المباينة لنهج السلف الصالح، وهم: أصحاب السيف، الخارجون على أئمة المسلمين، ومنهم أهل الجدل والخصومات فى الدين، وأهل

الكلام، وأصحاب البدع والمحدثات فى الدين، كالخوارج، والشيعة، والقدرية، والمرجئة، وغيرهم. وفى العصور المتأخرة ظهرت أهواء حادثة، كأصحاب الاتجاهات الحديثة المنحرفة، كالقومية، والبعثية، والعلمانية، فهم كلهم فى سبيل الفرقة، بل غالبهم فى سبيل الردة والخروج من الملة.. وأهل الافتراق والأهواء كلهم أصحاب بدع، اعتقادية كانت أو قولية أو عملية، أو أحدها أو كلها، فهى غالباً متلازمة.. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والبدعة مقرونة بالفرقة، كما أن السنة مقرونة بالجماعة، فيقال: أهل السنة والجماعة، كما يقال: أهل البدعة والفرقة"[(٧)]... فالفُرْقَةُ: أعظم سمة من سمات أهل البدع والأهواء...ومن كان على السنة، وتلبس ببدعة غير مغلظة ولم يكن داعية لها فلا يخرجه ذلك عن السنة، كحال قتادة فى قوله بالقدر، وعبد الرزاق بن همام، والحاكم النيسابورى فى التشيع، وابن حجر والنووى فى تأويلاتهما.

ثانياً: الأهواء تعريفها:

الأهواء لغة: جمع، واحدها هوى[(٨)]. وهوى يهوى بمعنى: سقط[(٩)].

وفى الجملة فإن هذه المعانى للهوى تدور حول: الميل إلى رغبة النفس وشهواتها، ومحبة الشىء وغلبته على القلب، واستحواذ الشياطين، والحيرة والضلال والفجور والظلم.

والهوى شرعا: خلاف الهدى...فهو ميل النفس إلى ما ترغبه، وميل القلب إلى ما يحبه إذا خرج ذلك عن حد الشرع والاعتدال. ويكون ذلك فى الشهوات والعقائد والآراء والمذاهب.

وأهل الأهواء: .. هم كل من خالف السنة والجماعة.

وأهل البدع هم: .. كل من أحدث فى الدين ما ليس منه فى الاعتقادات، والأقوال، والأعمال، ولها عند عامة أهل العلم إطلاقان:

الأول: عام حيث تطلق كلمة (أهل البدع) على كل أهل الأهواء والافتراق والمبتدعات الاعتقادية والقولية والعملية: كالخوارج، والشيعة، والقدرية، والمرجئة، والجبرية، وغيرهم.

الثانى: خاص حيث تطلق كلمة (أهل البدع) على أصحاب البدع العملية: كالمقابرية، وأصحاب التوسلات البدعية، والصوفية الطرقية، وبدع الأذكار، والمشاهد، والمزارات، ونحو ذلك. والإطلاقان لا يتعارضان بل يتداخلان، لكن قد يكون إطلاق (أهل البدع) على البدع العملية أكثر، لأنها أظهر وأعم، وأكثر فى الناس ويدركها العامة والخاصة (أهل العلم). . أما البدع الاعتقادية فهى مما لا يدركه إلا أهل العلم، ويخفى أكثره على العامة، والبدع الاعتقادية ليست ظاهرة غالباً...هذا مع العلم أن البدع الاعتقادية والعملية تتلازمان على الأغلب.

الفرق بين الاختلاف والافتراق

المتأمل للنصوص الشرعية التى ورد فيها ذكر الاختلاف والافتراق، و أقوال أهل العلم، وواقع الأمة يتحصل على ما يلى:

١. أن الافتراق: أشد أنواع الاختلاف، وثمرة من ثماره.

٢. إن من الاختلاف ما لا يصل إلى حد الافتراق، وهو أكثر أنواع الخلاف بين الأمة، فالخلاف بين الصحابة والتابعين والأئمة والعلماء لم يصل إلى حد الافتراق ولا التنازع فى الدين.

٣. أن كل افتراق اختلاف، وليس كل اختلاف افتراق.

٤. أن الاختلاف سائغ شرعاً، والافتراق غير سائغ.

٥. أن الافتراق إنما يكون فى أصول الاعتقاد والقطعيات والإجماع، وما يؤدي إلى الشذوذ عن جماعة المسلمين والخروج على أئمتهم، والاختلاف دون ذلك.

٦. الافتراق مذموم كله، والاختلاف ليس كله مذموماً. فإن:

أ. الاختلاف يعذر صاحبه إذا كان مجتهداً، والافتراق لا يعذر صاحبه.

ب. الاختلاف عن اجتهاد يؤجر عليه المجتهد، والافتراق مأزور صاحبه.

جـ. الافتراق يكون عن هوى، أما الاختلاف فلا يلزم منه ذلك.

د. الاختلاف رحمة، وأهله ناجون إن شاء الله، والفرقة عذاب، وأهله هالكون ومتوعدون.

وقال الشاطبى: "قال (يعنى بعض العلماء): كل مسألة حدثت فى الإسلام واختلف الناس فيها، ولم يورث ذلك الاختلاف بينهم عداوة ولا بغضاء ولا فرقة –علمنا أنها من مسائل الإسلام، وكل مسألة حدثت وطرأت، فأوجبت العداوة والبغضاء والتدابر والقطيعة– علمنا أنها ليست من أمر الدين فى شئ، وأنها التى عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بتفسير الآية، وهى قوله تعالى":)**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا**(.

الضابط فى الحكم بالافتراق: .. تعتبر المفارقة فى حالين:

١. فيمن خالف أهل السنة والجماعة فى اصل كلى أو قاعدة من قواعد الشرع الكلية.

٢. فيمن خالف فى فروع كثيرة، وجزئيات كثيرة مخرجة عن سمة أهل السنة وهديهم، كبدع الشعائر والعبادات إذا كثرت.

قواعد عامة فى الأهواء والافتراق(١٠)

١. الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه هم القدوة فى الدين: قال شيخ الإسلام: "والواجب على كل مسلم يشهد؛ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم يدور على ذلك، ويتبعه أين وجده، ويعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصحابة، فلا ينتصر لشخص انتصاراً مطلقاً عاماً إلا لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا لطائفة انتصاراً مطلقاً عامة إلا للصحابة –رضى الله عنهم أجمعين– فإن الهدى يدور مع الرسول

حيث دار، ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا، فإذا أجمعوا لم يجمعوا على خطأ قط، بخلاف أصحاب عالم من العلماء، فإنهم قد يجمعون على خطأ"(١١).

٢. مصادر تلقى العقيدة:

- مصادر تلقى العقيدة الحق، هى: الكتاب، والسنة، وإجماع السلف. وهذه هى مصادر الدين.
- وإذا اختلفت فهوم الناس لنصوص الدين، فإن فهم السلف هو الحجة، وهو القول الفصل فى مسائل الاعتقاد.
- ومنهج السلف فى تقرير العقيدة هو الأعلم والأسلم والأحكم. ويتمثل ذلك بآثارهم المبثوثة فى مصنفاتهم، وفى كتب السنة والآثار.
- والعقيدة توقيفية لا يجوز تلقيها من غير الوحى.
- والعقيدة غيبية فى تفصيلها، فلا تدركها العقول استقلالاً، ولا تحيط بها الأوهام.
- وكل من حاول تقرير العقيدة من غير مصادرها الشرعية فقد افترى على الله كذباً، وقال على الله بغير علم.
- كما أن العقيدة مبناها على التسليم والاتباع: التسليم لله تعالى، والاتباع لرسوله، صلى الله عليه وسلم.

قال الزهرى: "مِنَ اللهِ –عز وجل– الرسالةُ، وعلى الرسولِ، صلى الله عليه وسلم، البلاغُ، وعلينا التسليم"(١٢).

- والصحابة –رضى الله عنهم– وأئمة التابعين وتابعيهم وأعلام السنة كانوا على هدى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وسبيلهم هو سبيل المؤمنين، وآثارهم هى السنة والطريق المستقيم. قال الأوزاعى: "عليك بآثار من سلف، وإِنْ رَفَضَكَ الناس، وإياك وآراء الرجال، وإن زخرفوه لك بالقول، فإن الأمر ينجلى وأنت على طريق مستقيم"(١٣)... إنما تتلقى عقيدة السلف من مصادرهم الخالصة وهى بعد كتاب الله تعالى:

١. كتب السنة والحديث المعتمدة عند السلف، مثل الصحيحين والسنن الأربعة والموطأ ونحوهم.

٢. مصنفات أئمة الحديث فى العقيدة والرد على الخصوم، وكتب الآثار لهم، أمثال: الإمام أحمد ومالك والشافعى والبخارى والدارمى عثمان بن سعيد، والدارمى صاحب السنن، وابن قتيبة، والطبرى، وابن خزيمة، وابن بطة، واللالكائى، والملطى، والصابونى، والآجرى، والطحاوى، والهروى(١٤)، وابن عبد البر، وابن رجب، والذهبى.

٣. المصنفات الشاملة فى العقيدة والرد على خصومها لشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهما.

٤. كتب الرجال التى صنفها أئمة السنة والحديث، كالإمام أحمد والبخارى وابن حجر والذهبى والخطيب البغدادى.. ومن سار على نهجهم.

٣. السلف أهل السنة والجماعة لا يختلفون فى أصل من الأصول:

من سمات أهل السنة والجماعة، "السلف الصالح"، أنهم يختلفون ولم يختلفوا فى أصل من أصول الدين، وقواعد الاعتقاد، فقولهم فى مسائل الاعتقاد قول واحد بحمد الله، كما قال ابن قتيبة: "إن أهل السنة لم يختلفوا فى شئ من أقوالهم إلا فى مسألة اللفظ"(١٥) يعنى بذلك اللفظ بالقرآن هل هو مخلوق، أو غير مخلوق؟ ومع ذلك فإن خلافهم فى هذا –كما عند البخارى والإمام أحمد–خلاف لفظى حيث يجمعون على الأصل وهو أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق... بخلاف أهل البدع، فإنهم لا يوافقون أهل السنة فى الأصول أو بعضها، كما أنهم لا يتفقون على أصولهم، بل كل حزب بما لديهم فرحون، وإن الفرقة الواحدة منهم لا يتفق أفرادها على أصل كل الاتفاق.... أما عند أهل السنة (بحمد الله تعالى): فهم يتفقون جملة وتفصيلاً أئمتهم وعامتهم على أصول العقيدة.... فقول أهل السنة فى صفات الله تعالى وأسمائه وأفعاله واحد. وقولهم فى الكلام والاستواء والعلو لا يختلف. وقولهم فى الرؤية وسائر السمعيات لا يختلف. وقولهم فى الإيمان وتعريفه ومسائله واحد. وكذلك أصول الإيمان. وقولهم فى القدر واحد. وقولهم فى الأسماء والأحكام لا يختلف.

واختلاف أهل السنة إنما كان فى الاجتهاديات من أمور الأحكام، أو فرعيات المسائل الملحقة بالعقيدة مما لا يقطع به بنص قاطع، وذلك:....كمسالة اللفظ بالقرآن، ومسألة رؤية النبى صلى الله عليه وسلم لربه فى المعراج هل كانت يقظة أم مناماً، ومسألة رؤية الله تعالى فى المنام، ومسألة ابن صياد هل هو الدجال الذى يخرج فى آخر الزمان أو غيره، ونحو ذلك. ..وهذه الأمور ونحوها ليست من أصول الاعتقاد، والخلاف فيها دائر مع النصوص، لم يقل السلف برأيهم. والله أعلم.

٤. اختلاف الصحابة لم يصل إلى التنازع والافتراق:

اختلف الصحابة –رضى الله عنهم– بعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى مسائل مهمة وأمور خطيرة، لكن اختلافهم كان ينتهى إما بالإجماع أو العمل على ما يترجح، أو يفصل فى الأمور الخليفة أو أهل الحل والعقد، أو يبقى الخلاف سائغاً، وفى ذلك كله لم يصل الأمر عندهم إلى حد التنازع فى الدين، ولا الافتراق والخروج على الجماعة، ولم يبغ بعضهم على بعض.... **وقال شيخ الإسلام:**"ولهذا لم تحدث فى خلافة عثمان بدعة ظاهرة، فلما قُتِلَ وتفرق الناس حدثت بدعتان متقابلتان: بدعة الخوارج المكفرين لعلى، وبدعة الرافضة المدعين لإمامته وعصمته، أو نبوته أو إلاهيته.... ثم لما كان فى آخر عصر الصحابة، فى إمارة ابن الزبير وعبد الملك، حدثت بدعة المرجئة والقدرية. ثم لما كان فى أول عصر التابعين فى أواخر الخلافة الأموية حدثت بدعة الجهمية المعطلة والمشبهة الممثلة. ولم يكن على عهد الصحابة شئ من ذلك"(١٦).

٥. وكذلك بدع التأويل للصفات لم تحدث فى عهد الصحابة ولا منهم: يقول ابن القيم: "وقد تنازع الصحابة –رضى الله عنهم– فى كثير من مسائل الأحكام، وهم سادات المؤمنين، وأكمل الناس إيماناً، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا فى مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال"(١٧).... قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومعلوم أن عصر الصحابة وكبار التابعين لم يكن فيه من يعارض النصوص بالعقليات، فإن الخوارج والشيعة حدثوا فى آخر خلافة على، والمرجئة والقدرية حدثوا فى أواخر عصر الصحابة، وهؤلاء كانوا ينتحلون النصوص، ويستدلون بها على قولهم، لا يدعون أنهم عندهم عقليات تعارض النصوص.... ولكن لما حدثت الجهمية فى أواخر عصر التابعين، كانوا هم المعارضين للنصوص برأيهم، ومع هذا فكانوا قليلين مقموعين فى الأمة.. وأولهم الجعد بن درهم، ضحى به خالد بن عبد الله القسرى"(١٨).

ظهور الفرق(١٩)

وما أن استشهد عثمان رضى الله عنه، حتى ابتدأ ظهور الفرق، لأن حادث استشهاده أثار العديد من القضايا، فتلاحقت الأحداث وأخذ بعضها برقاب بعض، فبينما بايع الصحابة علياً رضى الله عنه، رأى معاوية الاقتصاص من قتلة عثمان، ثم اقتتل الفريقان، وظهر التحكيم كوسيلة لرأب الصدع، وألح أصحاب علىٍّ على التحكيم، بالرغم من معارضته، لأنه كان قاب قوسين أو أدنى من الظهور على الفريق الآخر. ولما أطاعهم كارهاً، عاد أتباعه فأعلنوا أنه لا حكم إلا لله. وخرجوا عليه وكفروه. واستتبع ذلك انقسام المسلمين إلى ثلاثة أقسام، فريق يؤيد علياً، وفريق يؤيد معاوية، وفريق ثالث أبى الخوض فى النزاع. ومن ثم ظهر التشيع فى بدايته لتأْييد علىّ، ثم تحول إلى عقائد كلامية عند مقتل الحسين بن على فى موقعة كربلاء(٢٠). وعن سعيد بن المسيب قال: وقعت الفتنة الأولى –يعنى مقتل عثمان– فلم تُبْق من أصحاب بدر أحداً، ثم وقعت الفتنة الثانية، فلم تُبْق من أصحاب الحديبية أحداً، ثم وقعت الفتنة الثالثة فلم ترتفع وللناس طباخ(٢١). فالخوارج والشيعة، حدثوا فى الفتنة الأولى، والقدرية والمرجئة فى الفتنة الثانية، والجهمية ونحوهم بعد الفتنة الثالثة، فصار هؤلاء)**الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً**(٢٢). يقابلون البدعة بالبدعة، أولئك غلوْا فى الوعد، حتى نفوا بعض الوعيد، أعنى المرجئة !!. أولئك غلوا فى التنزيه حتى نفوا الصفات، وهؤلاء غلوا فى الإثبات حتى وقعوا فى التشبيه!!. وصاروا يبتدعون من الدلائل والمسائل ما ليس بمشروع، ويُعرضون عن الأوائل(٢٣) وينقلون عن اليهود والنصارى والمجوس والصابئين، فإنهم قرؤوا كتبهم فصار عندهم من ضلالتهم ما أدخلوه فى مسائلهم ودلائلهم، وغيروه فى اللفظ تارة وفى المعنى أخرى، فلبَسوا الحق بالباطل، وكتموا حقاً جاء به نبيهم، فتفرقوا واختلفوا، وتكلموا حينئذ فى الجسم والعرض والتجسيم نفياً وإثباتاً.

السبب الذى لأجله افترقت فرق المبتدعة عن جماعة المسلمين(٢٤)

الآيات الدالة على ذم البدعة وكثيراً من الأحاديث: أشعرت بوصف لأهل البدعة، وهو الفرقة الحاصلة، حتى يكونوا بسببها شيعاً متفرقة، لا ينتظم شملهم الإسلام، وإن كانوا من أهله، وحكم لهم بحكمه.. ألا ترى أن قوله تعالى: (**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء**(٢٥)، وقوله تعالى)**ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً** ...(الآية(٢٦)، وقوله)**وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**(٢٧)إلى غير ذلك من الآيات الدالة على وصف التفرُّق ؟ .. وفى الحديث: (**وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة**)(٢٨)..والتفرق ناشئ عن الاختلاف فى المذاهب والآراء إن جعلنا التفرق معناه بالأبدان، وهو الحقيقة، وإن جعلنا معنى التفرق فى المذاهب، فهو الاختلاف، كقوله:)**ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا**(الآية(٢٩).فلا بد من النظر فى هذا الاختلاف، ما سببه؟ ... وله سببان:

أحدهما: لا كسب للعباد فيه، وهو الراجع إلى سابق القدر.

والآخر: هو الكسبى، وهو المقصود بالكلام عليه فى هذا الباب، إلا أن نجعل السبب الأول مقدمة، فإن فيها معنى أصيلاً يجب التثبُّت له على من أراد التفقه فى البدع. قال الله تعالى:)**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم**(٣٠)، فأخبر سبحانه أنهم لا يزالون مختلفين أبداً، مع أنه لو أراد أن يجعلهم متفقين، لكان على ذلك (قديراً)، لكن سبق العلم القديم أنه إنما خلقهم للاختلاف، وهو قول جماعة من المفسرين فى الآية، وأن قوله:)ولذلك خلقهم(، معناه: وللاختلاف خلقهم، وهو مروى عن مالك بن أنس، ونحوه عن الحسن.. وليس المراد ها هنا الاختلاف فى الصور، كالحسن والقبيح، ولا فى الألوان، كالأحمر والأسود، ولا فى أصل الخلقة، كالتام الخَلْقِ والناقص الخَلْقِ، ولا فى الخُلُق، كالشجاع والجبان، ولا فيما أشبه ذلك من الأوصاف التى هم مختلفون فيها.. وإنما المراد اختلاف آخر، وهو الاختلاف الذى بعث الله النبيين ليحكموا فيه بين المختلفين، كما قال تعالى:)**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه** ...(الآية(٣١)، وذلك الاختلاف فى الآراء والنحل والأديان والمعتقدات المتعلقة بما يسعد الإنسان به أو يشقى فى الدنيا والآخرة... هذا هو المراد من الآيات التى ذكر فيها الاختلاف الحاصل بين الخلق: أن هذا الاختلاف الواقع بينهم على أوجه:

أحدها: الاختلاف فى أصل النحلة: وهو قول جماعة من المفسرين، منهم عطاء، قال:)**ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم**(٣٢)، قال: اليهود والنصارى والمجوس والحنفية، وهم الذين رحم ربك... وأصل هذا الاختلاف هو فى التوحيد والتوجه للواحد الحق سبحانه، فإن الناس فى عامة الأمر لم يختلفوا فى أن لهم مدبِّراً يدبِّرهم وخالقاً أوجدهم، إلا أنهم اختلفوا فى تعيينه على آراء

مختلفة، من قائل بالاثنين، وبالخمسة، أو بالطبيعة، أو بالدهر، أو بالكواكب ... إلى أن قالوا بالآدميين والشجر والحجارة وما ينحتونه بأيديهم، ومنهم من أقر بواجب الوجود الحق، لكن على آراء مختلفة أيضاً. ..إلى أن بعث الله الأنبياء مبيِّنين لأممهم حقَّ ما اختلفوا (فيه) من باطله، فعرَّفوا بالحق على ما ينبغي، ونزَّهوا ربَّ الأرباب عما لا يليق بجلاله، من نسبة الشركاء والأنداد، وإضافة الصاحبة والأولاد، فأقرَّ بذلك من أقرَّ به، وهم الداخلون تحت مقتضى قوله:)**إلا من رحم ربك**([٣٣])، وأنكر من أنكر، فصار إلى مقتضى قوله:)**وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين**([٣٤]). وإنما دخل الأولون تحت وصف الرحمة، لأنهم خرجوا عن وصف الاختلاف إلى وصف الوفاق والألفة، وهو قوله:)**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا**([٣٥])، وهو منقول عن جماعة من المفسرين.وبقي الآخرون على وصف الاختلاف، إذ خالفوا الحق الصريح، ونبذوا الدين الصحيح.

والثاني: ثم إن هؤلاء المتفقين قد يعرض لهم الاختلاف بحسب القصد الثاني لا بالقصد الأول، فإن الله تعالى حكم بحكمته أن تكون فروع هذه الملة قابلة للأنظار ومجالاً للظنون، وقد ثبت عند النظار أن النظريات لا يمكن الاتفاق فيها عادة، فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف، لكن في الفروع دون الأصول، وفي الجزئيات دون الكليات، فلذلك لا يضر هذا الاختلاف. .. يعني: أنه في مسائل الاجتهاد التي لا نص فيها يقطع العذر، بل لهم فيه أعظم العذر، مع أن الشارع لما علم أن هذا النوع من الاختلاف واقع، أتى فيه بأصل يرجع إليه، وهو قول تعالى:)**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول**...(الآية[٣٦])، فكل اختلاف من هذا القبيل حكم الله فيه أن يردَّ إلى الله، وذلك ردُّه إلى كتابه، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك ردُّه إليه إذا كان حياً، وإلى سنته بعد موته، وكذلك فعل العلماء رضي الله عنهم... إلا أن لقائل أن يقول: هل هم داخلون تحت قوله تعالى:)**ولا يزالون مختلفين**([٣٧]) أم لا؟

والجواب: أنه لا يصح أن يدخل تحت مقتضاها أهل هذا الاختلاف من أوجه:

أ: أن الآية اقتضت أن أهل الاختلاف المذكورين مباينون لأهل الرحمة، لقوله:)**ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك**([1])، فإنها اقتضت قسمين: أهل الاختلاف، ومرحومين، فظاهر التقسيم أن أهل الرحمة ليسوا من أهل الاختلاف، وإلا كان قسم الشيء قسيماً له، ولم يستقم معنى الاستثناء.

ب: أنه قال فيها:)**ولا يزالون مختلفين**([1])، فظاهر هذا أن وصف الاختلاف لازم لهم، حتى أطلق عليهم لفظ اسم الفاعل المشعر بالثبوت، وأهل الرحمة مبرؤون من ذلك، لأن وصف الرحمة ينافي الثبوت على المخالفة، بل إن خالف أحدهم في مسألة، فإنما يخالف فيها تحرياً لقصد الشارع فيها، حتى إذا تبين له الخطأ فيها، راجع نفسه، وتلافى أمره، فخلافه في المسألة بالعَرَض لا بالقصد الأول، فلم يكن

وصف الاختلاف لازماً ولا ثابتاً، فكان التعبير عنه بالفعل الذى يقتضى العلاج والانقطاع أليق فى الموضع.

جـ: أنَّا نقطع بأن الخلاف فى مسائل الاجتهاد واقع ممن حصل له محض الرحمة، وهم الصحابة ومن اتبعهم بإحسان رضى الله عنهم، بحيث لا يصح إدخالهم فى قسم المختلفين بوجه، فلو كان المخالف منهم فى بعض المسائل معدوداً من أهل الاختلاف –ولو بوجه ما–، لم يصح إطلاق القول فى حقه: إنه من أهل الرحمة، وذلك باطل بإجماع أهل السنة.

د: أن جماعة من السلف الصالح جعلوا اختلاف الأمة فى الفروع ضرباً من ضروب الرحمة، وإذا كان من جملة الرحمة، فلا يمكن أن يكون صاحبه خارجاً من قسم أهل الرحمة.

فاختلافهم فى الفروع كاتفاقهم فيه.

والثالث: وبين هذين الطريقين واسطة أدنى من الرتبة الأولى وأعلى من الرتبة الثانية، وهى أن يقع الاتفاق فى أصل الدين، ويقع الاختلاف فى بعض قواعده الكلية، وهو المؤدى إلى التفرُّق شيعاً.

فيمكن أن تكون الآية تنتظم هذا القسم من الاختلاف، ولذلك صح عنه صلى الله عليه وسلم أن أمته تفترق على بضع وسبعين فرقة، وأخبر أن هذه الأمة تتبع سنن من كان قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع، وشمل ذلك الاختلاف الواقع فى الأمم قبلنا.

ويرشحه وصف أهل البدع بالضلالة وإيعادهم بالنار، وذلك بعيد من تمام الرحمة.

والرابع: وقد ذهب جماعة من المفسرين إلى أن المراد بالمختلفين فى الآية أهل البدع، وأن)**من رحم ربك**(هم أهل السنة.

ولكن لهذا الكتاب أصل يرجع إلى سابق القدر لا مطلقاً، بل مع إنزال القرآن محتمل العبارة للتأويل، وهذا مما لا بد من بسطه.

فاعلموا أن الاختلاف فى بعض القواعد الكلية لا يقع فى العادة الجارية بين المتبحرين فى علم الشريعة، الخائضين فى لجتها العظمى، العالمين بمواردها ومصادرها، والدليل على ذلك اتفاق العصر الأول وعامة العصر الثانى على ذلك، وإنما وقع اختلافهم فى القسم المفروغ منه آنفاً.

بل كل خلاف على الوصف المذكور وقع بعد ذلك، **فله أسباب ثلاثة** قد تجتمع وقد تفترق:

أحدها: أن يعتقد الإنسان فى نفسه أو يعتقد فيه أنه من أهل العلم والاجتهاد فى الدين –ولم يبلغ تلك الدرجة–، فيعمل على ذلك، ويعد رأيه رأياً، وخلافه خلافاً:

ولكن تارة يكون ذلك (فى) جزئىٍّ وفرع من الفروع، وتارة يكون فى كلىٍّ وأصل من أصول الدين –كان من الأصول الاعتقادية أو من الأصول العملية–، فتراه آخذاً ببعض جزئيات الشريعة فى

هدم كلياتها، حتى يصير منها إلى ما ظهر له بادئ رأيه، من غير إحاطة بمعانيها، ولا رسوخ فى فهم مقاصدها.

وهذا هو المبتدع، وعليه نبَّه الحديث الصحيح: أنه صلى الله عليه وسلم قال: (**لا يقبض الله العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يَبْق عالم، اتَّخذ الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**)(٣٨).

قال بعض العلماء: تقدير هذا الحديث يدل على أنه لا يؤتى الناس قط من قبل علمائهم، وإنما يؤتون من قِبَلِ أنه إذا مات علماؤهم، أفتى من ليس بعالم، فيُؤتَى الناس من قِبَلِهِ، وقد صرِّف هذا المعنى تصريفاً، فقيل: ما خان أمين قط، ولكنه ائتمن غير أمين، فخان. قال: ونحن نقول: ما ابتدع عالم قط، ولكنه استُفْتِيَ من ليس بعالم، فضلَّ وأضلَّ.

قال مالك بن أنس: بكى ربيعة يوماً بكاء شديداً، فقيل له: أمصيبة نزلت بك؟ فقال: لا! ولكن استُفْتِيَ مَن لا علم عنده.

والثانى من أسباب الخلاف: اتباع الهوى:

ولذلك سُمِيَ أهل البدع أهل الأهواء، لأنهم اتَّبعوا أهواءهم، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها حتى يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك.

وأكثر هؤلاء هم أهل التحسين والتقبيح، ومن مال إلى الفلاسفة وغيرهم، ويدخل فى غمارهم من كان منهم يخشى السلاطين لنيل ما عندهم، أو طلباً للرياسة، فلا بد أن يميل مع الناس بهواهم، ويتأول عليهم فيما أرادوا حسبما ذكره العلماء ونقله الثقات من مصاحبى السلاطين.

فالأولون ردُّوا كثيراً من الأحاديث الصحيحة بعقولهم، وأساؤوا الظن بما صح عن النبى صلى الله عليه وسلم، وحسنوا ظنهم بآرائهم الفاسدة، حتى ردَّوا كثيراً من أمور الآخرة وأحوالها، من الصراط، والميزان، وحشر الأجساد، والنعيم والعذاب الجسميين، وأنكروا رؤية البارى ... وأشباه ذلك، بل صيَّروا العقل شارعاً جاء الشرع أو لا، بل إن جاء، فهو كاشف لمقتضى ما حكم به العقل ... إلى غير ذلك من الشناعات.

والآخرون خرجوا عن الجادة إلى البنيَّات، وإن كانت مخالفة لطلب الشريعة، حرصاً على أن يغلب عدوَّه، أو يفيد وليَّه، أو يجرَّ إلى نفسه (نفعاً).

والثالث من أسباب الخلاف: التصميم على اتباع العوائد وإن فسدت أو كانت مخالفة للحق.

وهو اتباع ما كان عليه الآباء والأشياخ وأشباه ذلك، وهو التقليد المذموم، فإن الله ذمَّ ذلك فى كتابه، كقوله:)**بل قالوا إنا وجدنا ءاباءنا على أمة** ...(الآية[٣٩]، ثم قال:)**قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه ءاباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون**[٤٠].

وليس من هذا القبيل عمل أهل المدينة، وما أشبه ذلك، لأنه دليل ثابت عند جماعة من العلماء على وجه ليس مما نحن فيه.

وهذا الوجه هو الذى مال بأكثر المتأخرين من عوام المبتدعة (إذا اتفق أن) ينضاف إلى شيخ جاهل أو لم يبلغ مبلغ العلماء، فيراه يعمل عملاً، فيظنه عبادة، فيقتدى به، كائناً ما كان ذلك العمل، موافقاً للشرع أو مخالفاً، ويحتج به على من يرشده، فيقول: كان الشيخ فلان من الأولياء، وكان يفعله، وهو أولى أن يُقْتدى به من علماء أهل الظاهر، فهو فى الحقيقة راجع إلى تقليد من حسن ظنه فيه، أخطأ أو أصاب، كالذين قلَّدوا آباءهم سواء، وإنما قصارى قول هؤلاء أن يقولوا: إن آباءنا أو شيوخنا لم يكونوا ينتحلون مثل هذه الأمور سدى، وما هى إلا مقصودة بالدلائل والبراهين، مع أنهم يرون أن لا دليل عليها، ولا برهان يقود إلى القول بها.

هذه الأسباب الثلاثة راجعة فى التحصيل إلى وجه واحد، وهو: **الجهل بمقاصد الشريعة**، والتخرُّص على معانيها بالظن من غير تثبُّت، أو الأخذ فيها بالنظر الأول، ولا يكون ذلك من راسخ فى العلم.

فإن قيل: فَرضتَ الاختلاف المتكلم فيه فى واسطة بين طرفين، فكان من الواجب أن تردد النظر فيه عليهما، فلم تفعل، بل رددته إلى الطرف الأول فى الذم والضلال، ولم تعتبره بجانب الاختلاف الذى لا يضير، وهو الاختلاف فى الفروع.

فالجواب عن ذلك: أن كون ذلك القسم واسطة بين الطرفين لا يحتاج إلى بيانه إلا من الجهة التى ذكرنا، أما الجهة الأخرى، فإن ذكرهم فى هذه الأمة وإدخالهم فيها أوضح أن هذا الاختلاف لم يلحقهم بالقسم الأول، وإلا، فلو كان ملحقاً لهم به، لم يقع فى الأمة اختلاف ولا فرقة، ولا أخبر الشارع به، ولا نبَّه السلف الصالح عليه، فكما أنه لو فرضنا اتفاق الخلق على الملة بعد (أن) كانوا مفارقين لها، لم نقل: اتفقت الأمة بعد اختلافها، كذلك لا نقول: اختلفت الأمة أو افترقت الأمة بعد اتفاقها، أو خرج بعضهم إلى الكفر بعد الإسلام، وإنما يقال: افترقت وتفترق الأمة إذا كان الافتراق واقعاً فيها مع بقاء اسم الأمة هذا هو الحقيقة، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخوارج: (**يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة**) ثم قال: (**وتتمارى فى الفوق– وفى رواية: فينظر الرامى إلى سهمه إلى نصله إلى رصافه، فيتمارى فى الفوقة–: هل علق بها من الدم شىء**)[٤١]، والتمارى فى الفوق فيه، هل فيه فرث ودم أم لا؟ شك بحسب التمثيل: هل خرجوا من الإسلام حقيقة؟ وهذه العبارة لا يعبر بها عمن خرج من الإسلام بالارتداد مثلاً.

وقد اختلفت الأمة فى تكفير هؤلاء الفرق أصحاب البدع العظمى، ولكن الذى يَقوى فى النظر وبحسب الأثر عدم القطع بتكفيرهم، والدليل عليه عمل السلف الصالح فيهم:

- ألا ترى إلى صنع على رضى الله عنه فى الخوارج؟ وكونه عاملهم فى قتالهم معاملة أهل الإسلام، على مقتضى قول الله تعالى:)**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما**...(الآية[٤٢]، فإنه لما اجتمعت الحرورية، وفارقت الجماعة، لم يهيجهم علىٌّ، ولا قاتلهم، ولو كانوا بخروجهم مرتدين، لم يتركهم، لقوله عليه الصلاة والسلام: (**من بدل دينه فاقتلوه**)[٤٣]، ولأن أبا بكر رضى الله عنه خرج لقتال أهل الردة ولم يتركهم، فدل ذلك على اختلاف ما بين المسألتين.

- وأيضاً، فحين ظهر معبد الجهنى وغيره من أهل القدر، لم يكن لهم من السلف الصالح إلا الطرد والإبعاد والعدواة والهجران، ولو كانوا خرجوا إلى كفر محض، لأقاموا عليهم الحد المقام على المرتدين.

- وعمر بن عبد العزيز أيضاً لما خرج فى زمانه الحرورية بالموصل، أمر بالكف عنهم على حد ما أمر به علىّ رضى الله عنه، ولم يعاملهم معاملة المرتدين.

- ومن جهة المعنى، إنا وإن قلنا: إنهم متبعون للهوى ولِمَا تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فأنهم ليسوا بمتبعين للهوى بإطلاق، ولا متبعين لما تشابه من الكتاب من كل وجه، ولو فرضنا أنهم كذلك، لكانوا كفاراً، إذ لا يتأتى ذلك من أحد فى الشريعة إلا مع رد محكماتها عناداً، وهو كفر، وأما من صدق بالشريعة ومن جاء بها وبلغ فيها مبلغاً يظن به أنه متبع للدليل بمثله، لا يقال فيه: إنه صاحب هوى بإطلاق، بل هو متبع للشرع فى نظره، لكن بحيث يمازجه الهوى فى مطالبه، من جهة إدخال الشبه فى المحكمات بسبب اعتبار المتشابهات، فشارك أهل الهوى فى دخول الهوى فى نحلته، وشارك أهل الحق فى أنه لا يقبل إلا ما دل عليه الدليل على الجملة.

- وأيضاً، فقد ظهر منهم اتحاد القصد مع أهل السنة على الجملة فى مطلب واحد، وهو الانتساب إلى الشريعة، ومن أشد مسائل الخلاف –مثلاً– مسألة إثبات الصفات، حيث نفاها من نفاها، فإنا إذا نظرنا إلى مقاصد الفريقين، وجدنا كل واحد منهما حائماً حول حمى التنزيه ونفى النقائص وسمات الحدوث، وهو مطلوب الأدلة، وإنما وقع اختلافهم فى الطريق، وذلك لا يخل بهذا القصد فى الطرفين معاً، فحصل فى هذا الخلاف أشبه الواقع بينه وبين الخلاف الواقع فى الفروع.

- وأيضاً، فقد يعرض الدليل على المخالف منهم، فيرجع إلى الوفاق، لظهوره عنده، كما رجع من الحرورية الخارجين على علىٍّ رضى الله عنه ألفان، وإن كان الغالب عدم الرجوع، كما تقدم فى أن المبتدع ليس له توبة، لحديث (**إن الله احتجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته**)[٤٤].

فصل فى الكلام على حديث الافتراق

الطعن فى حديث الافتراق أو التشكيك فيه وجوابه:

كثر فى الآونة الأخيرة الطعن فى حديث الافتراق، أو التشكيك فيه بناء على ضعف أكثر أسانيده، وغالب الذين يشككون فى حديث الافتراق، قصدهم وصف الأمة كلها بالسلامة والنجاة والاستقامة، وإزالة الفوارق العقدية والمذهبية، مع العلم أن الإخبار القاطع عن وقوع الافتراق فى الأمة ليس مقصوراً على حديث الافتراق الذى ذكر فيه عدد الفرق الثلاث والسبعين رغم شهرته وصحته بمجموع طرقه وتلقيه بالقبول من الأمة. وهذا الإنكار أو الشك ناتج عن عدة أسباب ترجع إلى حال القائل بهذا القول.

فالغالب ممن يذهبون هذا المذهب أنه ناتج عن الجهل: الجهل بسنن الله تعالى، والجهل بالشرع (نصوص القرآن والسنة) أو الجهل بالواقع، والجهل بآثار السلف.

وطائفة منهم لا يستهان بعددها، عرفناهم من الرافضة والباطنية وأتباع الفرق الأخرى، فإنهم من أكثر الناس ترويجاً لدعوى إلغاء الفوارق العقدية، وضرورة التقريب والتقارب بين الفرق، ولا أعرف أحداً يدعو إلى الحق والاجتماع على السنة إلا أهل السنة، وهذا من أبرز سماتهم اليوم، وقبل اليوم، ودائماً بحمد الله. فهم يدعون إلى اجتماع الكلمة على الحق، ووحدة الصف تحت راية التوحيد، وجمع الشمل حول السنة، والاعتصام بحبل الله، لا الشعارات والأهواء.

أما الآخرون فيقولون: نجتمع على ما نحن عليه، ونتقارب ونلغى الفوارق العقدية، وكل على ما هو عليه! وأحسنهم من يقول: "نجتمع ونتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه"، وهذا حق ومن أعظم غايات الدين، إذا قصد به الأحكام والاجتهادات، ولعل هذا مقصود أول من أطلقها فى العصر الحديث(٤٥)، لكنها أريد بها الباطل حينما صارت شعاراً للتجميع العقدى دون تمييز بين الحق، والباطل ولا السنة والبدعة، ولا التوحيد والشرك، بل أرادوا منها التفاف الناس جميعاً تحت شعارات ورايات تقوم على الخلط ومداهنة أهل الأهواء والافتراق، والتنازل عن (السنة والجماعة) (السلف) لئلا نجرح شعور الآخرين! إن هذا هو التفريط فى الحق، والإفراط فى الإرجاء، ومصانعة أهل الأهواء. وقد نهانا الله عن ذلك فقال عز وجل:)**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار**((٤٦).

هؤلاء وأولئك فيهم المشككة أو الطاعنون فى حديث الافتراق، فافهم رعاك الله.

صح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتتفرق امتى على ثلاث وسبعين فرقة**).

وخرجه الترمذى هكذا.

وفى رواية أبى داود، قال: (**افترق اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة**).

قال الألبانى(٤٧) رحمه الله تعالى:

أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجة وابن حبان والآجرى فى "الشريعة" والحاكم وأحمد وأبو يعلى فى "مسنده" من طرق عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة مرفوعاً به. وقال الترمذى: "حديث حسن صحيح". وقال الحاكم: "صحيح على شرط مسلم". ووافقه الذهبي.(٤٨)

قلت (الألبانى): وفيه نظر فإن محمد بن عمرو، فيه كلام ولذلك لم يحتج به مسلم، وإنما روى له متابعة، وهو حسن الحديث، وأما قول الكوثرى فى مقدمة "التبصير فى الدين" (ص٥) أنه لا يحتج به إذا لم يتابع، فمن مغالطاته، أو مخالفاته المعروفة، فإن الذى استقر عليه رأى المحدثين من المحققين الذين درسوا أقوال الأئمة المتقدمين فيه أنه حسن الحديث يحتج به، من هؤلاء النووى والذهبى والعسقلانى وغيره. على أن الكوثرى إنما حاول الطعن فى هذا الحديث لظنه أن فيه الزيادة المعروفة بلفظ:(**كلها فى النار إلا واحدة**) وهو ظن باطل، فإنها لم ترد فى شئ من المصادر التى وقفت عليها من حديث أبى هريرة رضى الله عنه من هذا الوجه عنه.

وقد وردت الزيادة المشار إليها من حديث معاوية رضى الله عنه، وهذا لفظه:

(**ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون فى النار، وواحدة فى الجنة، وهى الجماعة**).

أخرجه أبو داود والدارمى وأحمد وكذا الحاكم والآجرى وابن بطة واللالكائى من طريق صفوان قال: حدثنى أزهر بن عبد الله الهوزنى عن أبى عامر عبد الله بن لحى عن معاوية بن أبى سفيان أنه قام فينا فقال: ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا فقال ... فذكره. وقال الحاكم وقد ساقه عقب حديث أبى هريرة المتقدم:

"هذه أسانيد تقام بها الحجة فى تصحيح هذا الحديث". ووافقه الذهبى وقال الحافظ فى "تخريج الكشاف" (ص٦٣): "وإسناده حسن".

والحديث أورده الحافظ ابن كثير فى تفسيره (١/٣٩٠) من رواية أحمد، ولم يتكلم على سنده بشىء، ولكنه أشار إلى تقويته بقوله: "وقد ورد هذا الحديث من طرق".

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى "المسائل" (٢/٨٣)(٤٩).

"وهو حديث صحيح مشهور". وصححه أيضاً الشاطبى فى "الاعتصام" (٣/٣٨).

ومن طرق الحديث التى أشار إليها ابن كثير، وفيها الزيادة، ما ذكره الحافظ العراقى فى "تخريج الإحياء" (٣/١٩٩) قال:

"رواه الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وحسنه، وأبو داود من حديث معاوية، وابن ماجة من حديث أنس وعوف بن مالك، وأسانيدها جياد".

قال (الألبانى): قلت: ولحديث أنس طرق كثيرة جداً تَجَمَّعَ عندى منها سبعة، وفيها كلها الزيادة المشار إليها، مع زيادة أخرى يأتى التنبيه عليها.

فقد تبين بوضوح أن الحديث ثابت لا شك فيه، ولذلك تتابع العلماء خلفاً عن سلف على الاحتجاج به حتى قال الحاكم فى أول كتابه "المستدرك": (أنه حديث كبير(٥٠) فى الأصول) ولا أعلم أحداً قد طعن فيه، إلا بعض من لا يعتد بتفرده وشذوذه، أمثال الكوثرى الذى سبق أن أشرنا إلى شئ من تنطعه وتحامله على الطريق الأولى لهذا الحديث، التى ليس فيها الزيادة المتقدمة: "كلها فى النار"، جاهلاً بل متجاهلاً حديث معاوية وأنس على كثرة طرقه عن أنس كما رأيت. وليته لم يقتصر على ذلك، إذن لما التفتنا إليه كثيراً، ولكنه دعم رأيه بالنقل عن بعض الأفاضل، ألا وهو العلامة ابن الوزير اليمنى، وذكر أنه قال فى كتابه: "العواصم والقواصم" ما نصه:

"إياك أن تغتر بزيادة" كلها فى النار إلا واحدة" فإنها زيادة فاسدة، ولا يبعد أن تكون من دسيس الملاحدة. وقد قال ابن حزم: إن هذا الحديث لا يصح".

وقفت على هذا التضعيف منذ سنوات. ثم أوقفنى بعض الطلاب فى "الجامعة الإسلامية" على قول الشوكانى فى تفسيره "فتح القدير" (٢/٥٦):

"قال ابن كثير فى تفسيره: وحديث افتراق الأمم إلى بضع وسبعين، مروى من طرق عديدة، قد ذكرناها فى موضع آخر. انتهى. قلت: أما زيادة كونها فى النار إلا واحدة "فقد ضعفها جماعة من المحدثين" (!)، بل قال ابن حزم: إنها موضوعة".

وقفة حول الفرق وتحديدها وتعدادها(٥١)

اختلف أهل العلم قديماً وحديثاً فى الفرق الثنتين والسبعين الهالكة من هى؟ ومن يدخل فيها من الفرق التى ظهرت ومن يخرج؟ وهل يمكن تعيينها نوعياً وعددياً وإحصاؤها على سبيل الحصر والتحديد؟

أما الفرقة الناجية فليست محل خلاف بين أهل العلم المعتبرين، لأن تعيينها بالوصف قاطع لا شك فيه، وبَيِّنٌ لا لبس فيه إلا لمن عميت بصيرته، فلا حيلة فيه. فالفرقة الناجية وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم بأنها: من كان على ما عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وما كان عليه صلى الله عليه وسلم وأصحابه، معلوم منقول مأثور مسطور، وهو السنة وسبيل المؤمنين، وقد تكفل الله تعالى ببقائه وحفظه وبقاء طائفة من الأمة عليه، ظاهرة بالحق، قائمة بالدين، والحمد لله.

وقبل أن أعرض أقوال أهل العلم، وشبهات أهل الأهواء ومزاعمهم أشير إلى ما تقرر عند جمهور السلف وهو:

- أن وقوع الافتراق فى الأمة أمر ثابت قطعاً فى القرآن والسنة، والواقع يشهد له.
- أن الرسول صلى الله عليه وسلم صح عنه أن عدد الفرق الهالكة: ثنتين وسبعين، والناجية واحدة.

- أنه صلى الله عليه وسلم، بين أن الفرقة الناجية هم أهل السنة حيث كانوا على ما وصف، أى على ما كان عليه هو صلى الله عليه وسلم وأصحابه.
- أن الفرق الهالكة من أهل النار لكن ليسوا كلهم من المخلدين فى النار.
- أن من الفرق من يخرج عن مسمى جميع الفرق، لخروجهم من الملة أصلاً، وليسوا من عداد المسلمين كغلاة الجهمية، وغلاة الرافضة، والباطنية، والفلاسفة الخالصة، وأهل الحلول والاتحاد ووحدة الوجود.
- أن تحديد الفرق الثنتين والسبعين على سبيل التعيين، وتوزيع الأعداد تحديداً على أصول الفرق الكبرى أمر غيبي لا دليل عليه، وكذلك تسميتها من باب الأولى، لأن الافتراق يزداد، والأهواء والبدع تتجدد، وتنبعث فى كل عصر، وإلى قيام الساعة، والله أعلم.

أصول الفرق الهالكة عند بعض العلماء وإخراجهم الجهمية الخالصة من الثنتين والسبعين:

لقد اجتهد بعض الأئمة فى تعيين أصول الفرق الهالكة، وتقسيم عددها على أصول الفرق الكبرى فى زمانهم.

قال حفص بن حميد: "قلت لعبد الله بن المبارك: على كم افترقت هذه الأمة؟ فقال: الأصل أربع فرق: هم الشيعة، والحرورية، والقدرية، والمرجئة، فافترقت الشيعة على اثنتين وعشرين فرقة، وافترقت الحرورية على إحدى وعشرين فرقة، وافترقت القدرية على ست عشرة فرقة، وافترقت المرجئة على ثلاث عشرة فرقة. قال: قلت يا أبا عبد الرحمن لم أسمعك تذكر الجهمية، قال: إنما سألتنى عن فرق المسلمين"(٥٢).

ويرى أكثر أهل العلم أن الجهمية الخالصة خارجة من عداد الفرق لأنها كفرت بالتعطيل، وكذلك الباطنية وملاحدة الفلاسفة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ولهذا قال عبد الله بن المبارك ويوسف بن أسباط وغيرهما: أصول البدع أربعة: الشيعة، والخوارج، والقدرية، والمرجئة. قالوا: والجهمية ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة.

وكذلك ذكر أبو عبد الله بن حامد عن أصحاب أحمد فى ذلك قولين، هذا أحدهما، وهذا أرادوا به التجهم المحض، الذى كان عليه جهم نفسه، ومتبعوه عليه، وهو نفى الأسماء مع نفى الصفات، بحيث لا يسمى الله بشيء من أسمائه الحسنى، ولا يسميه شيئاً ولا موجوداً ولا غير ذلك"(٥٣).

وقال أيضاً: "وشر منه نفاة الأسماء والصفات، وهم الملاحدة من الفلاسفة والقرامطة، ولهذا كان هؤلاء عند الأئمة قاطبة ملاحدة منافقين، بل فيهم من الكفر الباطن ما هو أعظم من كفر اليهود والنصارى، وهؤلاء لا ريب أنهم ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة، وإذا أظهروا الإسلام فغايتهم أن يكونوا منافقين: كالمنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولئك كانوا أقرب إلى الإسلام من هؤلاء، فإنهم كانوا يلتزمون شرائع الإسلام الظاهرة، وهؤلاء قد يقولون برفعها فلا صوم ولا

صلاة ولا حج ولا زكاة، لكن قد يقال: إن أولئك كانوا قد قامت عليهم الحجة بالرسالة أكثر من هؤلاء"(٥٤).

وقال أيضاً: "والجهمية عند كثير من السلف، مثل: عبد الله بن المبارك، ويوسف بن أسباط، وطائفة من أصحاب الإمام أحمد، وغيرهم، ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة التى افترقت عليها هذه الأمة، بل أصول هذه عند هؤلاء هم: الخوارج، والشيعة، والمرجئة، والقدرية، وهذا المأثور عن أحمد، وهو المأثور عن عامة أئمة السنة والحديث، أنهم كانوا يقولون: من قال القرآن مخلوق: فهو كافر، ومن قال: إن الله لا يرى فى الآخرة: فهو كافر، ونحو ذلك"(٥٥).

تحديد الفرق الثنتين والسبعين الهالكة وتسميتها غير ممكن:

لقد حاول بعض العلماء ومؤلفو كتب المقالات تسمية الفرق الثنتين والسبعين وتحديدها عددياً، وتوزيع ذلك على أصول الفرق الكبرى، وممن فعل ذلك الإمام عبد الله بن المبارك(٥٦)، ويوسف بن أسباط، وأبو حاتم الرازى(٥٧)، والملطى فى التنبيه، والبغدادى فى الفَرق بين الفِرق، وابن الجوزى فى تلبيس إبليس، والشهرستانى فى الملل والنحل(٥٨)، والسكسكى فى الرهان(٥٩)، والعراقى فى الفرق المفترقة "الفرق وأصناف الكفرة"(٦٠)، وكل ذلك اجتهاد من هؤلاء لا يسنده دليل، لا سيما وأن المسألة غيبية، فإن النبى، صلى الله عليه وسلم، حينما أخبر لم يتجاوز ذلك العدد، وقد أطلق المكان والزمان، فيبقى احتمال خروج الفرق إلى قيام الساعة، وعلى هذا فلا يستطيع أحد أن يحدد هذه الفرق على سبيل الجزم، لأن الأمر غيبى، والله أعلم.

دعوى كل فرقة أنها الناجية مردودة بالنصوص:

أما ما تتنازعه الفرق من أن كل واحدة تدعى أنها الناجية، فإنه محسوم برده إلى كتاب الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، أما الكتاب فمثل قوله تعالى:)**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله**(٦١). فاتباع الرسول، صلى الله عليه وسلم، هو الميزان، أما دعوى أهل الأهواء أنهم متبعون للرسول، صلى الله عليه وسلم، فهى مردودة بعرض أصولهم على السنة ومنهج السلف، فمن كان على سبيل السلف ونهجهم فهو المحق، ومن خالف السنة وهدى السلف ونهجهم فهو صاحب هوى، ولا تسلم له دعواه، بل ترد.

الهوامش

((١)) هذا الفصل مختصر من كتاب مقدمات فى الأهواء والافتراق والبدع للدكتور ناصر عبد الكريم العقل.

((٢)) آل عمران: ١٠٣.

((٣)) انظر لسان العرب، مادة (فرق) ١٠/٣٠١.

((٤)) القاموس المحيط ١١٨٥ (فرق).

((٥)) أخرجه أحمد فى المسنده/١٨٠ عن أبى ذر، والحاكم فى المستدرك١/١١٧، وأبو داود (٤٧٥٨) وصححه الألبانى، انظر: صحيح الجامع الصغير، الحديث رقم(٦٢٨٦).

((٦)) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين، الحديث (١٨٤٨)، ٣/١٤٧٧.

((٧)) الاستقامة١/٤٢.

((٨)) انظر لسان العرب١٥/١٧٠-١٧٣، مادة (هوا)، والمعجم الوسيط ص(١٠١٢).

((٩)) انظر لسان العرب١٥/١٧٠-١٧٣، مادة (هوا)، والمعجم الوسيط ص(١٠١٢).

((١٠)) هذا الفصل مختصر من كتاب مقدمات فى الأهواء والافتراق والبدع للدكتور ناصر عبد الكريم العقل.

((١١)) منهاج السنة (٥/٢٦١، ٢٦٢).

((١٢)) أخرجه البخارى فى الصحيح، كتاب التوحيد، باب(٤٦)، الفتح١٣/٥٠٨.

((١٣)) تاريخ الإسلام للذهبى (١٤١-١٦٠)/٤٩٠.

((١٤)) شيخ الإسلام الأنصارى الهروى من أنصار التصوف، وله فيه هفوات لكنه نصر عقيدة السلف وقارع أهل الكلام وكشف عوارهم.

((١٥)) التعارض النقل والعقل لابن تيمية ١/٢٦٣.

((١٦)) منهاج السنة ٦/٢٣١.

((١٧)) أعلام الموقعين ١/٧١.

((١٨)) درء التعارض ٥/٢٤٤.

((١٩)) انظر كتاب الكشاف الفريد عن معاول الهدم ونقائض التوحيد ١/٧٥-٨٧.

((٢٠)) قواعد المنهج السلفى: ص ٦٣-٦٤ للدكتور مصطفى حلمى.

((٢١)) طباخ: عقل وقوة.

((٢٢)) الأنعام: ١٥٩.

((٢٣)) شرح العقيدة الطحاوية: ص ٥٩٣ وما بعدها لمحمد ابن أبى العز.

((٢٤)) هذا الباب مختصر من كتاب الاعتصام للإمام الشاطبى رحمه الله تعالى.

((٢٥)) الأنعام: ١٥٩

((٢٦)) الروم: ٣١-٣٢

((٢٧)) الأنعام: ١٥٣

((٢٨)) صححه الألبانى (الصحيحة ٢٠٣، ١٤٩٢).

((٢٩)) آل عمران: ١٠٥.

((٣٠)) هود: ١١٨-١١٩.

((٣١)) البقرة: ٢١٣.

((٣٢)) هود: ١١٩.

((٣٣)) هود: ١١٩.

((٣٤)) هود: ١١٩.

((٣٥)) آل عمران: ١٠٣.

((٣٦)) النساء: ٥٩.

((٣٧)) هود: ١١٨.

((٣٨)) أخرجه مسلم فى "صحيحه" (٢٦٧٣) (١٣) فى العلم: باب رفع العلم وقبضه.

((٣٩)) الزخرف: ٢٣.

((٤٠)) الزخرف: ٢٤.

((٤١)) مضى تخريجه (ص٢٨).

((٤٢)) الحجرات: ٩٠.

((٤٣)) أخرجه: البخارى (١٤٩/٦، ٢٦٧/١٢- فتح) من حديث ابن عباس.

((٤٤)) صححه الألبانى (الصحيحة ح١٦٢٠).

((٤٥)) هو حسن البنا رحمه الله.

((٤٦)) هود: ١١٣.

((٤٧)) انظر السلسلة الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألبانى رحمه الله تعالى (حديث ٢٠٤/٢٠٣).

((٤٨)) ثم رأيت الحاكم قد أخرجه فى مكان آخر(٦/١) وقال: "احتج مسلم بمحمد بن عمرو" ورده الذهبى بقوله: "قلت: ما احتج مسلم بمحمد بن عمرو منفرداً، بل بانضمامه إلى غيره".

((٤٩)) مخطوط فى المكتبة الظاهرية (فقه حنبلى٣).

((٥٠)) فى الأصل: "كثر". وفى "كشف الخفاء" (٣٠٩/١) عنه "كثير" وفى "المقاصد" ما أثبته، ولعله الصواب.

((٥١)) من كتاب مقدمات فى الأهواء والافتراق والبدع للدكتور ناصر عبد الكريم العقل.

((٥٢)) الإبانة لابن بطة١/٣٨٠،٣٧٩.

((٥٣)) الفتاوى ٤٤٧/١٧.

((٥٤)) الفتاوى١٧/٤٤٨،٤٤٧.

((٥٥)) الفتاوى١٢/٤٨٦-٤٨٧.

((٥٦)) انظر الإبانة١/٣٨٠،٣٧٩.

((٥٧)) المصدر السابق٣٨٠،٣٧٨،٣٧٧- ٣٨٦.

((٥٨)) ص٢٢.

((٥٩)) ص٢١.

((٦٠)) ص٢٢ رسالة ماجستير تحقيق عبد الله بن سليمان العمر.

((٦١)) آل عمران: ٣١.

(١٩)

مراحل ظهور الأهواء والبدع وتطورها

مرت الأهواء والبدع والافتراق في نشأتها وتطورها وأصولها بمراحل، ويمكن تقسيم هذه المراحل إلى أزمنة تقريبية من خلال الاستقراء:

المرحلة الأولى (النصف الأول من القرن الأول):

وهي: مرحلة نشأة البذور الأولى للافتراق، وتتميز هذه المرحلة بما يلي:

١ ــ أن نزعات الأهواء كانت فردية ساذجة في الغالب، أو من أناس ليسوا من الأمة: كالنصارى واليهود أو المنافقين، وليست جماعية، وليس لها أتباع ورؤوس، عدا الفتنة (السبئية) على عثمان فإنها كانت مبيتة فيما يظهر، ولها زعماء وجمهور من الرعاع والغوغائية، وتمخضت عنها أول الفرق (الشيعة والخوارج).

٢ ــ كما بدأت في وقت مبكر نزعات الابتداع: كالتعلق بالآثار وتقديسها، وبدع الأذكار: كالتكبير الجماعي، والكلام في المتشابهات، وفي القدر. لكنها لم تستقر ولم تنتشر، بل كانت يقضى عليها في مهدها.

٣ ــ أن الصحابة والتابعين وقفوا لهذه الأمور بحزم وعلم، فلم تفلت، بل قمعوها، وظلت مغمورة في عهدهم.

٤ ــ لذلك لم تنتشر، ولم تؤثر أثراً بالغاً إلاَّ بعد حين، بعد القرون الفاضلة حين كثرت الأهواء وكثر الجهل.

٥ ــ أن جماعة المسلمين واحدة، وإمامهم واحد، وكلهم وسوادهم الأعظم على السنّة.

٦ ــ ظهرت فيها أول الفرق بعد الفتنة على عثمان، وهي: (الشيعة، والخوارج).

٧ ــ لم تظهر في هذه المرحلة الفلسفات، والقواعد الكلامية، والجدلية المتعمقة، ولم يتكلم أصحابها في: أسماء الله، وصفاته، والقدر، والسمعيات على نحو ما حدث فيما بعد.

المرحلة الثانية (النصف الثاني من القرن الأول):

وفي هذه المرحلة:

١ ــ تطورت الفرق الأولى: (الشيعة، والخوارج) وتوسعت عقائدها، وتشعبت فرقها.

٢ ــ كما نشأت فرق جديدة وهي: القدرية الأولى، والمرجئة الأولى: كالغيلانية.

٣ ــ وبرز للأهواء زعماء ورؤوس اشتهروا بذلك مثل: معبد الجهني، وغيلان الدمشقي، والمختار بن أبـي عبيد، يعرفون بها وتعرف بهم.

٤ ــ كما أحدثت بعض البدع: كالبناء على الصخرة في بيت المقدس لغرض سلطاني، ومع ذلك لم يكن الناس يرتادونها للتبرك والتقديس.

٥ ــ اشتد نكير السلف لهذه البدع المحدثات، وبدَّعوا أهلها، وحذَّروا من التلقي عنهم ومن مجالستهم ومخالطتهم، فكان الواحد منهم كالأجرب، لا يجالسه إلاَّ أمثاله.

المرحلة الثالثة (القرن الثاني):

وفي هذه المرحلة:

١ ــ **تطورت الفرق الأولى وزادت فرقها**، وتوسعت مقالاتها وكثر أتباعها.

٢ ــ **ظهرت فرق جديدة**، وتأصلت قواعد الفرق الكبرى: كالمعتزلة، والجهمية، والمرجئة الثانية (الجهمية) ومرجئة الفقهاء، وقد بدأت بذورها في الفترة السابقة، والجبرية، والقدرية الثانية (قدرية المعتزلة)، وتميزت الرافضة عن الزيدية (الشيعة) وظهرت المشبهة.

٣ ــ **برزت المؤثرات الأجنبية في عقائد أهل الافتراق والأهواء**: اليهودية، والنصرانية، والصابئة، والمجوسية الفارسية، والهندية، واليونانية، والفلاسفة.

٤ ــ **تأصلت الضلالة والافتراق مثل**:

(١) التعطيل.

(٢) والتأويل.

(٣) والاعتماد على العقليات والفلسفات في تقرير العقائد.

(٤) والتشبيه.

(٥) والغلو في الدين.

(٦) والغلو في الأشخاص.

(٧) وقَصْبُ السلف (أي سب الصحابة وأئمة الهدى) على يد الرافضة.

(٨) ونزعات الباطنية من خلال فرق الرافضة.

٥ ــ **ظهرت قواعد الجدل والخصومات** والمراء في الدين، التي نهى الله عنها، ونهى عنها رسوله ﷺ.

٦ ــ **بدأت بذور الصوفية المنحرفة**، وبدأت طلائعها قبل ظهور الطرق. ويتمثل ذلك في ظهور الرهبانية، والتشدد في العبادة، ومخالفة السنّة في بعض الأمور

٧ ــ **تميز موقف السلف** أمام هذا الزحف بالقوة والصلابة، والتصدي للأهواء وأهلها، حتى قتل من رؤوس البدع والضلالة عدد كبير.

المرحلة الرابعة (القرن الثالث):

وفي هذه المرحلة:

١ ــ **تطورت الفرق، وتشعبت، وتوسعت مقالاتها**، وكثر أتباعها، وتمكنت، واختلطت.

٢ ــ **ظهرت فرق جديدة** تتمثل بالفرق الكلامية التي قامت متأثرة ببعض أصول الجهمية والمعتزلة وهي (الكُلَّابية). لكنها مع ذلك كانت أقرب للسنّة والسلف بكثير من الفرق الكلامية التالية.

٣ ــ **كما ظهرت فرق الباطنية** وطلائعها الأولى الخبيثة، وتمكنت من بعض البلاد الإسلامية: كالخرمية، والقرامطة، والعبيدية، والإسماعيلية، وصارت لها دويلات أشاعت البدع والكفريات، ونشرت القبوريات والشركيات، وقُمِعَتْ السنّة في البلاد التي سيطر عليها هؤلاء الطغام.

٤ ــ **بدأت في هذه المرحلة** طلائع الصوفية الضالة الطرقية، والحلولية (كالحلاجية)، وعظمت الشطحات الصوفية وأحوالها البدعية مثل: الوجد، والذوق، والكشف، والسماع، والتفريق بين الحقيقة والشريعة، ودعاوى العلم اللدني، والتلقي عن غير الشرع، والفناء، والحلول والاتحاد، واختلاط التصوف بالفلسفة.

٥ ــ **تمكنت الفرق والأهواء** من الدولة والسلطان في عهد المأمون والمعتصم والواثق، وفرضت عقائد الجهمية والمعتزلة بالقوة وأحياناً بالسيف.

٦ ــ **تصدى أئمة السنّة** لهذا الزحف الخبيث، وعلى رأسهم الإمام أحمد، وحدثت أحداث جسام، انتهت بنصر السنّة تحت راية الإمام أحمد.

٧ ــ **برزت أول ظاهرة في المعتزلة**، وهي انقلاب أحد رؤوسهم عليهم، وهو أبو الحسن الأشعري، حتى تصدّى لهم وكشف عوارهم، وأبطل حججهم وكسرهم، فكان موقفه عاضداً لموقف السلف وموقف الإمام أحمد.

٨ ــ **اشتد موقف السلف ضد الأهواء والبدع**، وعظم بلاؤهم في ذلك، وتصاعدت المواجهة، وحشدت جحافل الحق ضد أهل الأهواء من الجهمية والمعتزلة والرافضة، حتى استبان الحق، وقامت الحجة، واستبصرت الأمة، ولم يبق على طريق الضلالة إلاَّ معاند مصر على بدعته. وتوج عمل السلف بموقف الإمام أحمد في المحنة، حتى انبلج الحق لكل ذي بصيرة، كما كثرت في هذه المرحلة المصنفات والردود من أئمة السلف ضد رؤوس البدع والأهواء، وارتسمت مناهج السلف في تقرير العقيدة وحمايتها والرد على أهل الخصومات. واستبان طريق السنّة للقاصي والداني؛ ولم تبق لمعاند حجة، لكن قدر الله ــ تعالى ــ كائن، وسنته نافذة، في وقوع الافتراق والاختلاف بعد قيام الحجة وبيان المحجة ولا يزال الناس مختلفين ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ [سورة هود، الآية: ١١٩].

المرحلة الخامسة (في القرن الرابع وما بعده):

وفي هذه المرحلة:

١ ــ **تطورت الفرق الأولى**، واتسعت مقالاتها، وكثرت فرقها.

٢ ــ **انحسرت الجهمية والمعتزلة**، وتفرقت تركتها، وامتزجت أصولها وعقائدها ومقالاتها في الفرق الأخرى: كالرافضة، والخوارج، والباطنية، والفلاسفة، وأهل الكلام.

٣ ــ **ظهرت الفرق الكلامية** التي لفَّقت بين بعض مناهج السلف ومناهج أهل الكلام، وهي: (الأشاعرة، والماتريدية) وتعد امتداداً للكلابية. وكانت ــ خاصة الأشاعرة ــ في نشأتها أقرب إلى السنّة وأصول السلف، لكنها مع الزمن مالت إلى أصول الجهمية، والفلاسفة، والصوفية.

٤ ــ **وفي هذه المرحلة نشأت الصوفية الطرقية الضالة**، كما ظهرت من خلال التصوف المذاهب الإلحادية والحلولية، والاتحادية، وأصحاب وحدة الوجود.

٥ ــ **وظهرت مذاهب الفلاسفة الإلحادية**، والمذاهب المتفرعة عنها من أمثال ابن سينا، وابن سبعين، وابن عربي، والسهروردي المقتول، وابن الفارض وذويهم.

٦ ــ **وفي هذه المرحلة** امتزجت مذاهب المتكلمين الأشاعرة ومن سلك سبيلهم بمذاهب: الفلاسفة، والجهمية، والمتصوفة، والمقابرية.

٧ ــ **في هذ المرحلة** زاد تمكن الباطنية وظهورها، وانتشرت عقائدها وبدعها الخبيثة في أقطار كثيرة، فقد تمكنت في مصر والمغرب، وفي البحرين وأجزاء كبيرة من العراق، ووصلت إلى الشام، وتمكنت في

اليمن، وعاثت في الأرض فساداً، أكثر من قرنين من الزمن، وهي التي نشرت بدع القبور والبناء عليها، والمزارات والمشاهد، والموالد، والأعياد والاحتفالات البدعية، وتقديس الأشخاص والآثار والأشجار والأحجار وغير ذلك مما يتدين به الصوفية والمقابرية والخرافيون إلى اليوم، الذين يزعمون أنهم على السنّة، وهم في الحقيقة على سنن الباطنية.

أما أهل السنّة: الرسول ﷺ، وصحابته، والتابعون، وأئمة الهدى، فهم بريئون مما يصنع المبتدعون، وهذا كتاب الله ناطق بالحق، وسنَّة رسوله ﷺ، كالبيضاء إن كانوا صادقين.

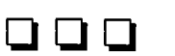

(٢٠)

ما من بدعة تظهر
إلا يقيض الله من يتصدى لها

ما من بدعة ظهرت إلا يقيض الله لها من يردّها، ويكشف عوارها، وينصر السنّة. وما من رأس من رؤوس الضلالة والبدع والأهواء إلا يقيض الله له من أعلام السنّة وأئمة الهدى من يتصدّى له، ويفضحه، ويبين أمره، ويرد عليه بدعته، وينشر السنّة، ويقيم الحجة.

وهذا تحقيق ما تكفّل الله به ووعد، من حفظ الدين، وبقاء السنّة، وظهور طائفة على الحق إلى قيام الساعة.

ومن نماذج ذلك:

١ ــ **لما حدثت الردّة بعد موت رسول الله ﷺ**، قيض الله لها أبا بكر ــ رضي الله عنه ــ فوقف وقفته الحازمة المشهورة، التي كسر الله بها موجة الردة، وأعز الله بها الدين.

٢ ــ **لما ظهرت نزعات الابتداع الأولى في عهد عمر** ــ رضي الله عنه ــ : كالكلام في القدر، والاحتجاج على المعاصي، ومتشابه الآيات، قيض الله لها عمر ــ رضي الله عنه ــ فأقام معوجها بدرته المشهورة، فأدّب صبيغاً لخوضه في الآيات المتشابهات[1]، وأدّب الأمة كلها بقطع شجرة

---

(١) انظر: سنن الدارمي ١/ ٥٥، ٥٦؛ والشريعة للآجري ٧٣.

الحديبية لقطع دابر البدع[١]، ونهى الذين كانوا يرتادون مواطن محددة للتعبد عندها مما لم يرد به الشرع[٢].

ونَهَرَ كعب الأحبار، وقال له: «لقد ضاهيت اليهودية» حينما أشار كعب أن يصلي عمر إلى الصخرة في بيت المقدس[٣].. وهكذا.

٣ ــ **وحسم عثمان** ــ رضي الله عنه ــ **دابر الاختلاف** حول القرآن بجمعه وتدوينه.

٤ ــ **وأدّب عليّ** ــ رضي الله عنه ــ **الشيعة الغلاة** وحرقهم في النار حينما علم أنهم يقدّسونه[٤]، وأمر بجلد المغتربة من الشيعة الذين فضَّلوه على أبي بكر وعمر[٥]، ومنع القصَّاص (الوعاظ) حينما أخذوا يحدثون بالحكايات وما لا أصل له، وما لا تدركه العامة[٦]، خوف الفتنة والقول على الله بغير علم.

٥ ــ **ولما ظهرت الخوارج** قيض الله لها سائر الصحابة وعلى رأسهم عليّ ــ رضي الله عنه ــ وابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ فأقاموا عليهم الحجة، وبينوا لهم المحجة حتى رجع منهم من كان يريد الحق، وأصر أهل الأهواء على بدعتهم. فقاتلهم الصحابة احتساباً وامتثالاً لأمر رسول الله ﷺ، وقمعاً لبدعتهم.

٦ــ **ولما ظهرت القدرية** في النصف الثاني من القرن الأول تصدى لها

---

(١) انظر: البدع والنهي عنها ص ٤٢.
(٢) انظر: البدع والنهي عنها ص ٤٢.
(٣) انظر: مسند أحمد ١/ ٣٨؛ والبداية والنهاية ٧/ ٥٨.
(٤) انظر: منهاج السنة ١/ ١١.
(٥) انظر: منهاج السنة ١/ ١١.
(٦) انظر: تحذير الخواص للسيوطي ٢١٣.

متأخرو الصحابة: كعبد الله بن عمر، وابن عباس، وجابر بن عبد الله، وواثلة بن الأسقع ــ رضي الله عنهم ــ وكان من أشدهم على القدرية ابن عمر، الذي حذر منها، وأنذر، وكشف عوارها، وحذر من معبد الجهني رأس القدرية وأصحابه، ونهى عن مجالستهم ومخالطتهم والتلقي عنهم، وكذلك ابن عباس، وكذلك لمَّا أعلن غيلان الدمشقي بدعة القول بالقدر، تصدى لها التابعون وعلى رأسهم مجاهد، والخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، وريحانة الشام الأوزاعي، لكنه أصر على بدعته حتى قتله هشام بن عبد الملك.

٧ ــ **ثم ظهر رأس الجهمية** (الجعد بن درهم) وداعية الضلالة، وأعلن بدعه، فقيض الله لها جماعة من أئمة التابعين وتابعيهم، أمثال: الأوزاعي، والزهري، وخالد بن عبد الله القسري (قصَّاب الزنادقة) الذي ضُحىَ به يوم عيد الأضحى.

٨ ــ **ثم اعتزلت المعتزلة الأولى** وعلى رأسهم واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، فقيض الله لهم أئمة السنّة أمثال: الحسن البصري، وأيوب السختياني، وابن عون، وثابت البناني، وابن سيرين، وحماد بن زيد، ومالك بن أنس، وأبـي حنيفة، وابن المبارك، وهكذا كلما كثرت حشود البدعة تصدت لها جحافل السنّة.

٩ ــ **ولما كثرت الرافضة** قيض الله لها أمثال: الشعبـي، والشافعي وعبد الله بن إدريس الأودي أبو محمد.

١٠ ــ **ولمَّا برز رأس الجهمية** الجهم بن صفوان، تصدى له سائر أئمة السلف، كالزهري، ومالك، وأبـي حنيفة، ثم عبد الله بن المبارك، وأمثالهم.

١١ ــ **ثم نبغ بشر المريسي رأس الجهمية** في زمانه، فقيض الله له أمثال عثمان بن سعيد الدارمي، والشافعي، والكناني.

١٢ ــ **ولمَّا احتشدت حشود الأهواء** زمن المأمون، وبعدها من الجهمية والمعتزلة، ومن سار على نهجهم، وعلى رأسهم ابن أبـي دؤاد، قيض الله لهم إمام السنّة وقامع البدعة الإمام أحمد بن حنبل، فكسرهم كسرة لم ينهضوا بعدها إلا متعثرين بحمد الله.

١٣ ــ **ولما تجمعت فلول الجهمية المعتزلة** في آخر القرن الثالث، وصالت صولتها، قيض الله لها أبا الحسن الأشعري، وكان الخبير بعوارها، لأنه كان معتزليّاً، فهداه الله للسنّة، فحشر المعتزلة في قمع السمسمة ــ كما قيل ــ وكسرهم، فانهزموا هزيمة منكرة.

١٤ ــ **ولما نبغت نابغة الكلام وريثة الجهمية والمعتزلة**، وبدأ أهل الكلام يخوضون في صفات الله تعالى والإيمان والقدر، تصدى لهم أئمة السلف في القرن الرابع والخامس، كالبربهاري، وابن خزيمة، وابن بطة، والهروي، واللالكائي، وابن منده، والملطي، والصابوني، والآجري، وابن وضاح، والبغوي، وابن عبد البر، وأمثالهم.

١٥ ــ **وفي القرون السادس والسابع والثامن**: عمت البلوى بالبدع والأهواء والافتراق، وهيمنت الفرق في سائر البلاد الإسلامية، واستحكمت الصوفية ببدعها، وساد الكلام والفلسفة والباطنية والدجل، وتسلط الكفار على كثير من بلاد المسلمين في الشام وغيرها.

فقيض الله أمثال: الشاطبـي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلاميذه، فتصدى لجحافل البدع وعساكر الضلالة، وجاهد في كل ميدان بلسانه وقلمه ويده، فقد تصدى لأهل الكلام، والفلاسفة، والباطنية، والصوفية، والرافضة، واليهود، والنصارى، والصابئة.

كما كان مجاهداً بعلمه ولسانه وسيفه للكفار التتار، والنصارى الصليبيين والبغاة، وكان يشجع المسلمين على الجهاد في كل ميدان، وله في ذلك إسهامات مشهورة مشهودة.

وكان ناصحاً لولاة المسلمين وأئمتهم، يذكرهم، ويعظهم، ويحثهم على الجهاد، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر بحكمة وقوة، كما كان ناصحاً لعامة المسلمين وعلمائهم، وكان آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، هو وأتباعه يصدع بذلك، ولا يخاف في الله لومة لائم، حتى أبان الله به السنّة، ونصر الله به راية السلف، وكشف الله به أهل البدع وعقائدهم ومناهجهم، وحتى أقام الحجة، وأبان المحجة، ونصر الملة، ولا تزال آثاره ومؤلفاته مرجعاً لكل صاحب سنة، وقذىً في عين كل صاحب بدعة، وفيها فرقان بين الحق وأهله، وبين الباطل وأهله ــ رحمه الله ــ وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

وأرى أنه من المفيد أن نستعرض حال المسلمين في وقته، ومدى استحكام البدع والأهواء والفرق، وتسلط الأعداء في الداخل والخارج، وما أشبه الليلة بالبارحة.

أحوال الأمة في عهد شيخ الإسلام ابن تيمية (في القرن السابع والثامن):

قال مبيناً أن بلاد الشام ومصر في عهده كانت أسلم بلاد المسلمين:

«فهذا وغيره مما يبين أن هذه العصابة التي بالشام ومصر في هذا الوقت: هم كتيبة الإسلام، وعزهم عز الإسلام، وذلهم ذلّ الإسلام، فلو استولى عليهم التتار لم يبق للإسلام عز، ولا كلمة عالية، ولا طائفة ظاهرة عالية، يخافها أهل الأرض تقاتل عنه»[1].

---

(١) الفتاوى ٢٨/ ٥٣٤.

وقد ذكر أحوال الأمة في عهده في سائر بلاد المسلمين على النحو التالي:

(أ) أحوال الأمة في (اليمن):

قال: «وذلك أن سكان اليمن في هذا الوقت ضعاف عاجزون عن الجهاد، أو مضيعون له، وهم مطيعون لمن ملك هذه البلاد حتى ذكروا أنهم أرسلوا بالسمع والطاعة لهؤلاء، وملك المشركين لما جاء إلى حلب جرى بها من القتل ما جرى»[1].

(ب) أحوال الأمة في (الحجاز):

قال: «وأما سكان الحجاز فأكثرهم أو كثير منهم خارجون عن الشريعة، وفيهم من البدع والفجور والضلال ما لا يعلمه إلا الله، وأهل الإيمان والدين فيهم مستضعفون عاجزون، وإنما تكون القوة والعزة في هذا الوقت لغير أهل الإسلام بهذه البلاد، فلو ذلت هذه الطائفة ــ والعياذ بالله تعالى ــ لكان المؤمنون بالحجاز من أذل الناس لا سيما وقد غلب فيهم الرفض»[2].

(ج) أحوال الأمة في (أفريقية):

وقال: «وأما بلاد أفريقية، فأعرابها غالبون عليها، وهم من شر الخلق، بل هم مستحقون للجهاد والغزو، وأما المغرب الأقصى مع استيلاء الإفرنج على أكثر بلادهم، لا يقومون بجهاد النصارى هناك، بل في عسكرهم من النصارى الذين يحملون الصلبان خلق عظيم، لو استولى التتار على هذه البلاد لكان أهل المغرب معهم من أذل الناس»[3].

---

(١) الفتاوى ٢٨/ ٥٣٣.

(٢) الفتاوى ٢٨/ ٥٣٤.

(٣) الفتاوى ٢٨/ ٥٣٣.

(د) أحوال الأمة في (الشام ومصر):

كانت بلاد الشام ومصر ــ رغم كثرة البدع وانتشار الرفض والباطنية ــ من أسلم البلاد، وكان أهل السنّة فيها ظاهرون. قال شيخ الإسلام: «ومن يتدبر أحوال العالم في هذا الوقت، يعلم أن هذه الطائفة هي أقوم الطوائف بدين الإسلام: علماً، وعملاً، وجهاداً عن شرق الأرض وغربها، فإنهم هم الذين يقاتلون أهل الشوكة العظيمة من المشركين وأهل الكتاب، ومغازيهم مع النصارى ومع المشركين من الترك، ومع الزنادقة المنافقين من الداخلين في الرافضة وغيرهم، كالإسماعيلية ونحوهم، والقرامطة معروفة معلومة قديماً وحديثاً. والعز الذي كان للمسلمين بمشارق الأرض ومغاربها هو بعزهم، ولهذا لما هُزموا سنة تسع وتسعين وستمائة دخل على أهل الإسلام من الذل والمصيبة بمشارق الأرض ومغاربها ما لا يعلمه إلا الله، والحكايات في ذلك كثيرة، ليس هذا موضعها»[1].

١٦ ــ **وفي العصور المتأخرة**: استحكمت البدع والشركيات، وانتشرت الطرق الصوفية والمقابرية، والعادات الجاهلية ــ خاصة في جزيرة العرب ــ، فقيض الله لها ناصر السنّة وقامع البدعة: الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب وأتباعه، فطهَّر الله بدعوته المباركة أرض جزيرة العرب ــ خاصة الحجاز ونجد وما حولها ــ من البدع والشركيات والمقابرية والصوفية الضالة، كما نفع الله بدعوته سائر أقطار المسلمين، حيث اعتزت بها السنّة وأنصارها، وانتصرت السلفية، واحتمت، وآوت إلى ركن شديد.

ولا نزال ــ بحمد الله ــ نرى ثمار هذه الدعوة في كل مكان، رغم تكالب جحافل البدعة، وما أجلبوه عليها بخيلهم ورجلهم: بالسب،

---

(١) الفتاوى ٢٨/ ٥٣٢، ٥٣٣.

والهمز، واللمز، وإعلان العداوة، وصد الناس بشتى الوسائل، والله غالب على أمره.

١٧ ــ **ولما نبغت نابغة** (قصب السلف) في القرن الماضي (الرابع عشر الهجري)، على لسان الكوثرية، معلنة انتقاص بعض أئمة السلف، ورفعت راية الكلام والتجهم، واتهام السلف وأتباعهم، ورميهم بالألقاب المشينة والألفاظ المقذعة مثل: الحشوية، والمشبهة، والحمقى، والجهلة، والأوباش، والرعاع، قيض الله لهم أمثال: المعلمي، والألباني، وبكر أبو زيد، وسائر مشايخنا حفظهم الله.

١٨ ــ **ولما أخرجت البدع أعناقها في البلاد الطاهرة** على يد أحد المنتسبين للعلوية وأتباعهم، قيض الله لها طائفة من المشايخ وطلاب العلم وفقنا الله وإياهم، ولا يزال مشايخنا لهم جهود مشكورة في هذا المضمار، وفقهم الله، وسدد خطاهم.

وهكذا ما من بدعة إلا يقيض الله عندها للسنّة ناصراً، يبين للناس الحق، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيى عن بينة، ولله عاقبة الأمور.

اختلاط الفرق وأهل الأهواء:

المتأمل لحال أهل الأهواء والافتراق منذ نشأة الفرق إلى أن تكاثرت، وانتشرت، واستقرت في القرن الثالث وما بعده، يتوصل للنتائج التالية:

١ ــ **أن كل فرقة** تبدأ ضلالاتها بأمور معدودات، ثم تتطور حتى تشمل سائر أصول الاعتقاد، ودقائق الأمور وتوافهها.

٢ ــ **أن كل فرقة** يوجد فيها القول وما يناقضه.

٣ ــ **أنها تفترق إلى فرق متعادية**، ومتناحرة، ومتباينة.

٤ ــ **أن سائرهم يكفر بعضهم بعضاً**، بل الفرقة الواحدة يكفر بعضها بعضاً في الغالب.

٥ ــ **أن الفرقة الواحدة** تتحول من قول إلى قول، وقد تقول وتذهب إلى مذهب خصومها.

٦ ــ **أنهم كثيراً** ما يتحولون من مذهب إلى نقيضه؛ إلا أنهم لا يوفقون للسنّة، ولا يهتدون لها، ولا يتحولون إليها (عدا أفراد قليل)، فلا يعرف في التاريخ أن فرقة تركت بدعها إلى السنّة، بل تتحول إلى ما هو أسوأ كما أخبر النبـي ﷺ عنهم: **(تتجارى بهم الأهواء، كما يتجارى الكلب بصاحبه)**[1].

فقد تطورت الخوارج إلى أن زادت على أصولها الباطلة، حتى قالت بأقوال الجهمية والمعتزلة، وتطورت الشيعة إلى القول بالتشبيه ثم الاعتزال والتجهم، ثم الباطنية، والخروج من أصول الإسلام أصلاً أصلاً، وتجريم السلف الصالح بما فيهم الصحابة والقول بردتهم.

وتطورت الصوفية من مجرد مخالفات وشطحات في العبادة والسلوك إلى مناهج ومذاهب إلحادية وباطنية وفلسفية وبدعية ضالة، وتحولت القدرية إلى معتزلة.. وهكذا... **وإليك بيان شيء من ذلك**:

١ ــ الخــوارج:

كانت الخوارج في أول أمرها لم تتجاوز أصولها مسائل معدودات، تدور حول تكفير مرتكب الكبيرة وإنكار الشفاعة، وتكفير بعض الصحابة وغيرهم: كأهل التحكيم، ومن رضي به، واستحلال الدماء، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٤٥٩٧)، كتاب السنّة؛ وأحمد ٤/١٠٢.

مناهج التأليف في علم المقالات والمؤلفات فيه

المطلب الأول: مناهج التأليف في علم المقالات:

سلك أصحاب كتب المقالات طريقان في ترتيب هذا الفن وفي ذلك يقول الشهرستاني: "ولأصحاب كتب المقالات طريقان في الترتيب:

أحدهما: أنهم وضعوا المسائل أصولاً ثم أوردوا في كل مسألة مذهب طائفة طائفة وفرقة فرقة.

والثاني: أنهم وضعوا الرجال وأصحاب المقالات أصولاً ثم أوردوا مذاهبهم في مسألة مسألة" [١].

ولا شك أن أغلب المصنفين سلك المسلك الثاني. ومنهم الشهرستاني الذي علل ذلك بقوله: "لأني وجدتها أضبط للأقسام وأليق بأبواب الحساب" [٢].

ومنهم عبد القاهر البغدادي في الفرق بين الفرق، حيث جعل أصحاب الآراء وزعماء الفرق أصولاً، ثم يورد آراء كل منهم في كل مسألة، كما قال: "...ونذكر في الباب الذي يليه تفصيل مقالة كل فرقة من فرق أهل الأهواء الذين ذكرناهم إن شاء الله عز وجل..."[٣].

وممن جمع بين الطريقتين أبو الحسن الأشعري في كتابه مقالات الإسلاميين فقد تميز كتابه بالجمع بين الطريقتين في عرض آراء الفرق، فالجزء الأول معظمه كان وفق الطريقة الثانية، وهي جعل أصحاب المذاهب أصولاً.

أما الجزء الثاني فهو وفق الطريقة الأولى، وهي جعل المسائل أصولاً، ثم إيراد في كل مسألة مذهب طائفة طائفة وفرقة فرقة.

ومنهج الأشعري هذا جعل كتابه بمثابة كتابين مختلفين ضم أحدهما إلى الآخر، فمن أراد آراء الفرق في مسألة ما، أمكنه ذلك، ومن أراد آراء فرقة ما، أمكنه ذلك، وقد اقتضى منه ذلك شيئاً من التكرار الملاحظ لآراء الأشخاص في أكثر من موضع.

وممن وافق الأشعري في طريقته هذه ابن حزم في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل، حيث جمع بين الطريقتين، مع استعماله الطريقة الأولى، وهي جعل المسائل أصولاً أكثر.

ومنهم أيضاً أبو محمد اليمني في كتابه عقائد الثلاث والسبعين فرقة حيث جمع بين الطريقتين الأولى، والثانية.

وإذا ماخرجنا عن كتب المقالات فإنا نجد كتب الردود قد اعتمدت الطريقة الأولى، وهي جعل المسائل أصولاً، فهي تعنى ببيان الحق في مسألة من مسائل العقيدة والرد على المخالفين فيها، ومن ذلك على سبيل المثال:

---

[١] الملل والنحل ٦/١

[٢] المصدر السابق ٦/١

[٣] الفرق بين الفرق ص ٢٨.

الرد على الجهمية للإمام أحمد، والرد عى الجهمية لعثمان بن سعيد الدارمي، والرد على الجهمية لابن منده، والرد على بشر المريسي للدارمي، والرد على البكري، وعلى الأخنائي، كلاهما لشيخ الإسلام ابن تيمية، والصارم المنكي في الرد على السبكي لابن عبد الهادي.

والملاحظ أن الغالب اليوم في طريقة عرض هذه المادة عند من يقوم بتدريسها هو استعمال الطريقة الثانية وهي وضع الرجال وأصحاب المذاهب أصولاً ثم إيراد مذاهبهم.

المطلب الثاني: الكتب المؤلفة في هذا العلم

من الكتب المؤلفة في هذا العلم:

١-المقالات[٤]: زفر بن الهذيل صاحب أبي حنيفة (١٥٨هـ)[٥].

٢-المقالات والفرق: سعد بن عبد الله الأشعري القمي الرافضي (٣٠٠هـ)[٦].

٣-المقالات[٧]: عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي البلخي المعتزلي (٣١٩هـ)[٨].

٤-المقالات في أصول الديانات: المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين (٣٤٦هـ) شيعي معتزلي[٩].

٥-المسائل والعلل في المذاهب والملل: له أيضاً.

٦-الآراء والديانات [١٠] للحسن بن موسى بن الحسن النوبختي الفارسي شيعي معتزلي [١١] (٣١٠هـ)[١٢].

٧-جمل المقالات[١٣]: لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (٣٢٤هـ)[١٤].

٨-مقالات الإسلاميين: له أيضاً.

٩-مقالات غير الإسلاميين[١٥]: له أيضا.

---

[٤] ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ١٧٨٢/٢.

[٥] ترجمته في شذرات الذهب ٢٤٣/١، الأعلام ٤٥/٣.

[٦] ترجمته في الأعلام ٨٦/٣.

[٧] ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ١٧٨٢/٢.

[٨] ترجمته في تاريخ بغداد ٣٨٤/٩، الأعلام ٦٥/٤-٦٦.

[٩] ترجمته في فوات الوفيات ٤٥/٢، لسان الميزان ٢٢٤/٤، الأعلام ٢٧٧/٤.

[١٠] ذكرابن النديم في الفهرست ص ١٧٧ أن ابن النوبختي ألف كتاب "الأراء والديانات " ولم يتمه

[١١] قال شيخ الإسلام ابن تيمية "في أواخر المائة الثالثة دخل من دخل من الشيعة في أقوال المعتزلة كابن النوبختي صاحب كتاب "الأراء والديانات " منهاج السنة ٧٢/١

[١٢] ترجمته في الفهرست ص ٢٥١، سير أعلام النبلاء ٣٢٧/١٥، الأعلام ٢٢٤/٢.

[١٣] ذكره ابن عساكر في تبيين كذب المفتري ص ١٢٩، والذهبي في السير ٨٧/١٥-٨٨.

[١٤] ترجمته في وفيات الأعيان ٣٢٦/١، البداية والنهاية ١٨٧/١١.

١٠-التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع: أبو الحسين محمد بن أحمد الملطي الشافعي (٣٧٧هـ)[١٦].

١١-الملل والنحل[١٧]: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (٤٠٣هـ)[١٨].

١٢-الملل والنحل[١٩]: أبو منصور عبد القاهر البغدادي (٤٢٩هـ)[٢٠].

١٣-الفرق بين الفرق: له أيضاً.

١٤-تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة: لأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني (٤٤٠هـ)[٢١].

١٥-المقالات والآراء والديانات[٢٢]: له أيضاً

١٦-الفصل في الملل والأهواء والنحل: لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ)[٢٣].

١٧-الملل والنحل: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (٥٤٨هـ)[٢٤].

١٨-عقائد الثلاث والسبعين فرقة[٢٥]: لأبي محمد اليمني (من علماء القرن السادس الهجري)[٢٦].

١٩-اعتقدات فرق المسلمين والمشركين: فخر الدين محمد بن عمر الرازي (٦٠٦هـ)[٢٧].

٢٠-البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان: لأبي الفضل عباس بن منصور التريني السكسكي اليمني (٦٨٣هـ)[٢٨].

٢١-المقالات[٢٩]: علاء الدولة أحمد بن محمد السمناني الصوفي (٧٣٦هـ)[٣٠].

---

[١٥] ذكره ابن عساكر في تبيين كذب المفتري ص ١٢٩، والذهبي في السير ٨٧/١٥-٨٨ . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ([كتاب مقالات غير الإسلاميين] وهوكتاب كبير أكبر من [مقالات الإسلاميين]) منهاج السنة ٢٨٣/٥ وقال الدكتور محمد رشاد سالم في هامش التحقيق "وهوكتاب مفقود .وانظر سزكين م ١ ،ج٤ ،ص ٣٥ ـ٣٩ "

[١٦] ترجمته في طبقات الشافعية ١١٢/٢، الأعلام ٣١١/٥.

[١٧] ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ص ١٨٢٠.

[١٨] ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٩٠/١٧، الأعلام ١٧٦/٦.

[١٩] مخطوط ذكره البغدادي في هدية العارفين ٦٠٦/٥، والزركلي في الأعلام ٤٨/٤.

[٢٠] ترجمته في سير أعلام النبلاء ٥٧٢/١٧.

[٢١] ترجمته في الأعلام ٣١٤/٥.

[٢٢] مخطوط ذكره البغدادي في هدية العارفين ٦٥/٦.

[٢٣] ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٨٤/١٨-٢١٢، الأعلام ٤٢٥٤.

[٢٤] ترجمته في وفيات الأعيان ٤٨٢/١، الأعلام ٢١٥/٦.

[٢٥] طبع بتحقيق د/ محمد بن عبد الله زربان الغامدي.

[٢٦] انظر الكلام عنه في القسم الدراسي من كتابه ١/١-٧.

[٢٧] ترجمته في وفيات الأعيان ٤٧٤/١، الأعلام ٣١٢/٦.

[٢٨] ترجمته في هدية العارفين ٤٣٧/٥، الأعلام ٢٦٧/٣.

[٢٩] ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ١٧٨٢/٢.

٢٢-المنية والأمل في شرح الملل والنحل: أحمد بن يحي بن المرتضى اليماني الزيدي المعتزلي (٨٤٠هـ)[٣١].

٢٣-الملل والنحل[٣٢]: له أيضاً.

٢٤-شارع النجاة[٣٣]: أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (٨٤٥هـ)[٣٤].

٢٥-وجيزة المقال في بيان ملل الضلال[٣٥]: أحمد بن السيد عثمان الدمشقي الحنفي (كان حيا سنة ١١٦٣هـ)[٣٦].

والملاحظ على هذه المؤلفات أن جلها لاتحمل عقيدة أهل السنة والجماعة، فإذا ما استثنينا كتاب "التنبيه والرد" للملطي، وكتاب "عقائد الثلاث والسبعين فرقة" لأبي محمد اليمني، وكتب "مقالات الإسلاميين" لأبي الحسن الأشعري (على ما عليه من ملاحظات سيأتي بيانها)، نجد أن باقي الكتب تمثل تياراً مخالفاً بل إنه في بعض الأحيان شديد المخالفة كالاعتزال أوالرفض.

ولكن لكون أكثر هذه الكتب تعتمد منهج النقل المجرد للمقالات دون تدخل في مناقشتها، فإنه قد يستفاد منها في هذا الوجه، أو قد يستفاد منها من وجه آخر كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية "ومع هذا فيستفاد من كلامهم نقض بعضهم على بعض وبيان فساد قوله،فإن المختلفين كل كلامهم فيه شيء من الباطل،وكل طائفة تقصد بيان بطلان قول الأخرى،فيبقى الإنسان عنده دلائل كثيرة تدل على فساد قول كل طائفة من الطوائف المختلفين في الكتاب." [٣٧]

المطلب الثالث: أشهر الكتب المؤلفة في المقالات ومناهج مؤلفيها.

من الحقائق التي يجهلها الكثير من الدارسين لهذا العلم أن أشهر الكتب التي يكثر تداولها بين أيديهم عند دراسة هذا العلم وهي "كتاب مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري،كتاب الفصل لابن حزم، وكتاب الملل والنحل للشهرستاني، والفرق بين الفرق للبغدادي" لا تمثل عقيدة أهل السنة والجماعة، فهذه الكتب يصدق فبها قول شيخ الإسلام ابن تيمية "فالكتب المصنفة في مقالات الطوائف التي صنفها هؤلاء ليس فيها ما جاء به الرسول وما دل عليه القرآن، لا في المقالات المجردة، ولا في

---

[٣٠] ترجمته في الدرر الكامنة ٢٥٠/١، الأعلام ٢٢٣/١.

[٣١] ترجمته في هدية العارفين ١٢٥/٥.

[٣٢] ذكره البغدادي في هدية العارفين ١٢٥/٥.

[٣٣] ذكره الزركلي في الأعلام ١٧٨/١.

[٣٤] ترجمته في البدر الطالع ٧٩/١، الأعلام ١٧٨/١.

[٣٥] ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ٧٠٢/٣، والبغدادي في هدية العارفين ١٧٥/٥.

[٣٦] ترجمته في المصدرين السابقين.

[٣٧] منهاج السنة ٢٧٥/٥

المقالات التي يذكر فيها الأدلة فإن جميع هؤلاء دخلوا في الكلام المذموم الذي عابه السلف وذموه."[٣٨].

وقوله أيضاً: "ثم إن غالب كتب أهل الكلام والناقلين للمقالات، ينقلون في أصول الملل والنحل من المقالات ما يطول وصفه. ونفس ما بعث الله به رسوله،وما يقوله أصحابه والتابعون لهم في ذلك الأصل، الذي حكوا فيه أقوال الناس،لا ينقلونه لا تعمداً منهم لتركه،بل لأنهم لم يعرفوه،بل ولا سمعوه،لقلة خبرتهم بنصوص الرسول وأصحابه والتابعين.".[٣٩].

ومن أجل ذلك أحببت التنبيه على ما حوته هذه المؤلفات من مناهج، مع بيان عقائد أصحابها وسمات تلك المؤلفات، وذلك على النحو التالي:

أولاً: كتاب مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري "٢٦٠ -٣٢٤".

١ – عقيدته:

يعتبر أبو الحسن الأشعري امتداداً للمذهب الكلابي فأبو الحسن الأشعري الذي عاش في الفترة ما بين (٢٦٠هـ -٣٢٤هـ) كان معتزلياً إلى سن الأربعين، حيث عاش في بيت أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة في البصرة، ثم رجع عن مذهب المعتزلة وسلك طريقة ابن كلاب وتأثر بها لفترة طويلة، ولعل السبب في ذلك أنه وجد في كتب ابن كلاب وكلامه بغيته من الرد على المعتزلة وإظهار فضائحهم وهتك أستارهم، وكان ابن كلاب قد صنف مصنفات رد فيها على الجهمية والمعتزلة وغيرهم. ولكن فات الأشعري أن ابن كلاب وإن رد على المعتزلة وكشف باطلهم وأثبت لله تعالى الصفات اللازمة، إلا أنه وافقهم في إنكار الصفات الاختيارية التي تتعلق بمشيئته تعالى وقدرته، فنفى كما نفت المعتزلة أن الله يتكلم بمشيئته وقدرته. كما نفى أيضاً الصفات الاختيارية مثل الرضى، والغضب، والبغض، والسخط وغيرها.

وقد مضى الأشعري في هذا الطور نشيطاً يؤلف ويناظر ويلقى الدروس في الرد على المعتزلة سالكاً هذه الطريقة.

ثم التقى بزكريا بن يحي الساجي فأخذ عنه ما أخذ من أصول أهل السنة والحديث،[٤٠] وكان الساجي شيخ البصرة وحافظها[٤١] ثم لما قدم بغداد أخذ عن حنبلية بغداد أموراً أخرى وذلك بآخر أمره.

ولكن كانت خبرته بالكلام خبرة مفصلة، وخبرته بالسنة خبرة مجملة، فلذلك وافق المعتزلة في بعض أصولهم التي التزموا لأجلها خلاف السنة واعتقد أنه يمكنه الجمع بين تلك الأصول، وبين الانتصار للسنة، كما فعل في مسألة الرؤية والكلام، والصفات الخبرية وغير ذلك.[٤٢]

---

[٣٨] النبوات ص ٢١٩-٢٢٠.

[٣٩] منهاج السنة ٣٠٣/٦ ـ ٣٠٤

[٤٠] - مجموع الفتاوى ٣٨٦/٥، تذكرة الحفاظ (٩٠٧/٢).

[٤١] - العلو ص١٥٠، تذكرة الحفاظ (٩٠٧/٢).

[٤٢] - مجموع الفتاوى ٢٠٤/١٢.

ولذلك قال عنه السجزي: (رجع في الفروع وثبت في الأصول)[٤٣] أي أصول المعتزلة التي بنوا عليها نفي الصفات، مثل دليل الأعراض وغيره.[٤٤]

وقال عنه الذهبي: "...وكان معتزلياً ثم تاب، ووافق أصحاب الحديث في أشياء يخالفون فيها المعتزلة، ثم وافق أصحاب الحديث في أكثر ما يقولونه، وهو ما ذكرناه عنه من أنه نقل إجماعهم على ذلك، وأنه موافق لهم في جميع ذلك، فله ثلاثة أحوال: حال كان معتزلياً، وحال كان فيها سنياُ في بعض دون البعض، وكان في غالب الأصول سنياً، وهو الذي علمناه من حاله، فرحمه الله وغفر له ولسائر المسلمين..."[٤٥].

ب – منهج الأشعري في كتابه المقالات

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومن أجمع الكتب التي رأيتها في مقالات الناس المختلفين في أصول الدين كتاب أبي الحسن الأشعري،وقد ذكر فيه من المقالات وتفصيلها ما لم يذكره غيره، وذكر فيه مذهب أهل الحديث والسنة بحسب ما فهمه عنهم. وليس في جنسه أقرب إليه منه، ومع هذا نفس القول الذي جاء به الكتاب والسنة وقال به الصحابة والتابعون لهم بإحسان: في القرآن،والرؤية،والصفات، والقدر،وغير ذلك من مسائل أصول الدين ليس في كتابه،وقد استقصى ما عرفه من كلام المتكلمين.

وأما معرفة ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة وآثار الصحابة، فعلم آخر لا يعرفه أحد من هؤلاء المتكلمين،المختلفين في أصول الدين.ولهذا كان سلف الأمة وأئمتها متفقين على ذم أهل الكلام) إلى أن قال (ومع هذا فيستفاد من كلامهم نقض بعضهم على بعض وبيان فساد قوله،فإن المختلفين كل كلامهم فيه شيء من الباطل،وكل طائفة تقصد بيان بطلان قول الأخرى،فيبقى الإنسان عنده دلائل كثيرة تدل على فساد قول كل طائفة من الطوائف المختلفين في الكتاب.

وهذا مما مُدح به الأشعري ؛ فإنه بيّن من فضائح المعتزلة وتناقض أقوالهم وفسادها ما لم يبينه غيره،لأنه كان منهم،وكان قد درس الكلام على أبي علي الجبائي أربعين سنة،وكان ذكياً،ثم إنه رجع عنهم،وصنف في الرد عليهم،ونصر في الصفات طريقة ابن كلاب،لأنها أقرب إلى الحق والسنة من قولهم،ولم يعرف غيرها،فإنه لم يكن خبيراً بالسنة والحديث وأقوال الصحابة والتابعين وغيرهم،وتفسير السلف للقرآن.والعلم بالسنة المحضة إنما يستفاد من هذا.

ولهذا يذكر في المقالات مقالة المعتزلة مفصلة: يذكر قول كل واحد منهم وما بينهما من النزاع في الدق الجل.....؛ويذكر أيضاً مقالات الخوارج والروافض،لكن نقله لها من كتب أرباب المقالات،لاعن

---

[٤٣]- الرد على من أنكر الحرف والصوت ص١٦٨.

[٤٤]- موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٣٦٧/١.

[٤٥] العرش للذهبي ٣٠٢/٢-٣٠٣.

مباشرة منه للقائلين،ولا عن خبرة بكتبهم،ولكن فيه تفصيل عظيم،ويذكر مقالة ابن كلاب عن خبرة بها ونظر في كتبه،ويذكر اختلاف الناس في القرآن من عدة كتب.

فإذا جاء إلى مقالة أهل السنة والحديث ذكر أمراً مجملاً تلقى أكثره عن زكريا بن يحي الساجي،وبعضه عمن أخذ عنه من حنبلية بغداد ونحوهم.وأين العلم المفصل من العلم المجمل ؟"[٤٦].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ثم إن غالب كتب أهل الكلام والناقلين للمقالات، ينقلون في أصول الملل والنحل من المقالات ما يطول وصفه. ونفس ما بعث الله به رسوله،وما يقوله أصحابه والتابعون لهم في ذلك الأصل، الذي حكوا فيه أقوال الناس،لا ينقلونه لا تعمداً منهم لتركه،بل لأنهم لم يعرفوه،بل ولا سمعوه،لقلة خبرتهم بنصوص الرسول وأصحابه والتابعين.

وكتاب المقالات للأشعري أجمع هذه الكتب وأبسطها، وفيه من الأقوال وتحريرها مالا يوجد في غيرها.وقد نقل مذهب أهل السنة والحديث بحسب ما فهمه وظنه قولهم،وذكر أنه يقول بكل ما نقله عنهم.

وجاء بعده من أتباعه .كابن فورك . من لم يعجبه ما نقله عنهم، فنقص من ذلك وزاد، مع هذا فلكون خبرته بالكلام أكثر من خبرته في الحديث ومقالات السلف الأئمة، وقد ذكر في غير موضع عنهم أقوالاً في النفي والإثبات لا تنقل عن أحد منهم أصلاً".[٤٧]

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وتأملت ما وجدته في الصفات من المقالات مثل كتاب الملل والنحل للشهرستاني، وكتاب مقالات الإسلاميين للأشعري، وهو أجمع كتاب رأيته في هذا الفن، وقد ذكر فيه ما ذكر أنه مقالة أهل السنة والحديث، وأنه يختارها،وهي أقرب ما ذكره من المقالات إلى السنة والحديث، لكن فيه أمور لم يقلها أحد من أهل السنة والحديث ونفس مقالة أهل السنة والحديث لم يكن يعرفها، ولا هو خبير بها، فالكتب المصنفة في مقالات الطوائف التي صنفها هؤلاء ليس فيها ما جاء به الرسول وما دل عليه القرآن، لا في المقالات المجردة، ولا في المقالات التي يذكر فيها الأدلة فإن جميع هؤلاء دخلوا في الكلام المذموم الذي عابه السلف وذموه."[٤٨].

ج – سمات كتاب مقالات الإسلاميين

من أبرز ما تميز به كتابه المقالات من السمات ما يلي:

١–قصر الأشعري الحديث في كتابه على الفرق الإسلامية، والسبب في ذلك أن له كتاباً آخر سماه (مقالات غير الإسلاميين)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ([كتاب مقالات غير الإسلاميين] وهو كتاب كبير أكبر من

---

[٤٦] منهاج السنة ٥/٢٧٥ ـ ٢٧٨

[٤٧] منهاج السنة ٦/٣٠٣ ـ٣٠٤

[٤٨] النبوات ص ٢١٩-٢٢٠.

[مقالات الإسلاميين])[٤٩].

٢-أغفل الأشعري في كتابه حديث الافتراق، فلم يتعرض له بشيء فضلاً عن أن يقيم كتابه عليه مثل ما فعل بعض المؤلفين الآخرين كما سيأتي.

٣-سلك الأشعري في عرض الآراء منهج عرض آراء ومقالات الفرق، دون أن يكون للمؤلف أي توجيه في ذلك العرض، فلا تعقيب ولا رد ولا نقد ولا مناقشة لتلك الآراء، وقد التزم الأشعري بهذا المنهج في جميع كتابه، ولذا عدَّ مصدراً موثوقا به في نقل آراء الفرق الأخرى، وخاصة المعتزلة الذين يعدون من خصومه.

٤-تميز كتاب المقالات بالجمع بين الطريقتين في عرض آراء الفرق، فالجزء الأول معظمه كان وفق الطريقة الأولى، وهي جعل أصحاب المذاهب أصولاً.

أما الجزء الثاني فهو وفق الطريقة الثانية، وهي جعل المسائل أصولاً، ثم إيراد في كل مسألة مذهب طائفة طائفة وفرقة فرقة.

ومنهج الأشعري هذا جعل كتابه بمثابة كتابين مختلفين ضم أحدهما إلى الآخر، فمن أراد آراء الفرق في مسألة ما، أمكنه ذلك، ومن أراد آراء فرقة ما، أمكنه ذلك، وقد اقتضى منه ذلك شيء من التكرار الملاحظ لآراء الأشخاص في أكثر من موضع.

٥-حصر الأشعري أصول الفرق في عشر فرق[٥٠] خلافا للمؤلفين الآخرين كما سيأتي.

٦-اختلف منهج الأشعري في طائفة المعتزلة عن سائر الطوائف من حيث:

أ- عدم تقسيم المعتزلة إلى فرق، كما هو شأن سائر الفرق الأخرى.

ب- عرض آرائهم وفق الطريقة الثانية فقط، وهي جعل المسائل أصولا.

جـ- التوسع والإطناب في عرض آرائها توسعاً ملحوظاً، حيث استغرق الحديث عنهم نصف الجزء الأول تقريباً، ومعظم الجزء الثاني، وذلك لسعة علمه واطلاعه على دقائق آرائهم، ودقة فهمه لمقولاتهم.

٧-كان الأشعري أعلم بالمقالات وقائليها، وأدق في نقل الأقوال، وعزوها إلى قائليها، وأكثر تحرياً ممن جاء بعده، بل إن كتابه هو مصدر معظم من جاء بعده من المؤلفين في مقالات الفرق، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في عدة مواضع من كتبه منها قوله:

"والأشعري أعلم بمقالات المختلفين من الشهرستاني، ولهذا ذكر عشر طوائف، وذكر مقالات لم يذكرها الشهرستاني، وهو أعلم بمقالات أهل السنة وأقرب إليها وأوسع علماً من الشهرستاني"[٥١].

---

[٤٩] منهاج السنة ٢٨٣/٥ وقال الدكتور محمد رشاد سالم في هامش التحقيق "وهو كتاب مفقود .وانظر سزكين م ١ ،ج٤ ،ص ٣٥ ـ٣٩ "

[٥٠] مقالات الإسلاميين ٦٥/١.

[٥١] النبوات ص ٢٤٧.

وقال: "ولهذا تجد نقل الأشعري أصح من نقل هؤلاء، لأنه أعلم بالمقالات، وأشد احترازاً من كذب الكذابين فيها..."[٥٢].

وقال أيضاً: "ومن أجمع الكتب التي رأيتها في مقالات الناس المختلفين في أصول الدين كتاب أبي الحسن الأشعري..."[٥٣].

وقال: "وكتاب المقالات للأشعري أجمع هذه الكتب وأبسطها، وفيه من الأقوال وتحريرها مالا يوجد في غيرها"[٥٤].

٨-الإيجاز والاختصار في عرض الآراء والمقالات بوجه عام[٥٥].

ثانياً: كتاب "الفرق بين الفرق" لعبد القاهر البغدادي "ت ٤٢٩ هـ"

١ – عقيدته: هو أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩هـ[٥٦]، وكان أشعري المذهب ويدل على ذلك عدة أمور منها:

١-اتفاق المترجمين له على نسبته إلى هذا المذهب

٢-عرضه لعقيدة الأشعرية في كتابه الفرق بين الفرق على أنها عقيدة أهل السنة والجماعة الفرقة الناجية، ولم يصنف الأشعرية على أنها إحدى الطوائف بل جعلهم هم أهل الحق[٥٧].

٣-كتابه "أصول الدين" أكبر دليل على انتسابه إلى هذا المذهب، فقد ألفه على طريقة المتكلمين في تقسيمه لأبوابه، وتقريره لمسائل الاعتقاد على منهج الأشاعرة في مختلف الأبواب[٥٨].

ب – منهج البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق

تميز منهج البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق بعدم ميزات من أهمها ما يلي:

١-اعتمد في تقسيم الفرق الإسلامية على حديث الافتراق، وسعى في تحديد الفرق طبقاً للعدد المذكور في الحديث.

٢-كانت طريقته في عرض آراء الفرق بجعل أصحاب الآراء وزعماء الفرق أصولاً، ثم إيراد آراء كل منهم في كل مسألة.

---

[٥٢] منهاج السنة ٣٠١/٦.

[٥٣] المصدر السابق ٢٧٥/٥.

[٥٤] المصدر السابق ٣٠٣/٦.

[٥٥] انظر حول هذه النقاط كتاب الشهرستاني ومنهجه في كتابه الملل والنحل ص ٢٥٨-٢٦٥ بتصرف.

[٥٦] ترجمته في وفيات الأعيان ٢٩٨/١، طبقات الشافعية للسبكي ٢٣٨/٣، فوات الوفيات ٢٩٨/١، تبيين كذب المفتري ص ٢٥٣، الأعلام ٤٨/٤.

[٥٧] الفرق بين الفرق ص ٣١٢ وما بعدها.

[٥٨] انظر المصدر السابق ص ٨٨، ٩٠، ١٣٣، ١٥٦، وغيرها.

٣-تميز كتاب الفرق بين الفرق بحسن التنظيم وجودة الترتيب لآراء الفرق والتقسيمات المتعلقة بها.

٤-قدم قبل الخوض في آراء الفرق بمقدمات، ضمنها ذكر الخلافات الواقعة في أول الأمة، وكيف وقع الافتراق، والإشارة إلى فرق الأمة إجمالاً، وتوسع في ذلك فكانت تلك المقدمات كالخلاصة لبقية كتابه.

٥-اقتصر البغدادي على عرض آراء الفرق الإسلامية فقط.

٦-وافق البغدادي في عده لأصول الفرق أبا الحسن الأشعري، حيث جعل كل منهما أصول الفرق عشرة[٥٩]، وعد بعض الفرق خارجة عن الإسلام وإن كانت تنتسب إليه، كغلاة الشيعة[٦٠].

٧-عرض البغدادي الأشعرية وآراءهم عرضاً يفيد أنها العقيدة الصحيحة التي عليها جمهور أهل السنة والجماعة . في نظره . وهم معظم المسلمين كما زعم، ولم يدخلها ضمن تصنيفه للفرق الإسلامية[٦١].

٨-كان عرض البغدادي للفرق أكثر شمولاً من عرض غيره، حيث يعطي القارئ تصوراً عن الفرقة من جوانب متعددة، سواء كانت تاريخية أو فقهية أو غيرها؛ إضافة إلى الآراء العقدية لها.

٩-اتبع البغدادي في كتابه منهج التقرير والنقد، لا مجرد النقل الموضوعي لآراء الفرق، فكان يعرض آراء الفرق ومقولاتها، ثم يتبع ذلك بمناقشتها، وبيان بطلانها وتهافتها من وجهة نظره، وكانت مناقشاته وتعقيباته تتسم بالشدة، والقسوة وتصل إلى حد السب والسخرية والشماتة والتهكم بالرأي وصاحبه[٦٢]، وذكر الإلزامات على الرأي، ومقارنة بعض آراء الفرقة بالمذاهب والأديان المنحرفة، بل يبلغ نقده حد الاتهام بالأعراض [٦٣]، بل التكفير والإخراج من ملة الإسلام، وهذا في مواضع متعددة من كتابه، وخاصة في حديثه عن المعتزلة [٦٤٦٥].

ثالثاً: كتاب الفصل لابن حزم "ت ٤٥٦ هـ"

١ – **عقيدته:** هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي المتوفى (٤٥٦ هـ)، أما مذهبه العقدي فإن ابن حزم لم يكن له مذهب عقدي متميز سار عليه في جميع أبواب الاعتقاد، بل نجده مضطرباً اضطراباً شديداً في مختلف المسائل العقدية، فنجده مثلاً يوافق المتكلمين في طريقة إثباتهم لوجود

---

[٥٩] الفرق بين الفرق ص ٣٨-٣٩.

[٦٠] المصدر السابق ص ٣٣٠ وما بعدها.

[٦١] المصدر السابق ص ٣١٢ وما بعدها.

[٦٢] المصدر السابق ص ١٧٥، ١٧٧-١٧٨.

[٦٣] المصدر السابق ص ١٧٣.

[٦٤] المصدر السابق ص ١١٤ وما بعدها.

[٦٥] انظر حول هذه النقاط كتاب الشهرستاني ومنهجه في كتابه الملل والنحل ص ٢٦٥-٢٦٩ بتصرف.

الله بطريق الحدوث، لكنه زاد عليهم في الاستدلال بالآثار الدالة في المخلوقات على وجود الصانع وهو أحد أدلة أهل السنة.

ونجده يستعمل العديد من مصطلحات المتكلمين المجملة، كنفي الجسمية والعرضية والزمانية والمكانية والحركة، مع أن الصواب في ذلك هو عدم النفي المطلق بل التفصيل في هذه المسائل.

ويوافق المعتزلة في إثبات الأسماء لله عز وجل مجردة عن المعاني المتعلقة بها، ومن غير أ ن تشتق منها الصفات، بل يعتبرها أنها أعلام محضة لا معنى لها.

والصفات التي يثبتها ابن حزم يرجعها إلى الذات كما هو مذهب طوائف من المتكلمين في هذه المسألة، ونجده أيضاً يؤول العديد من الصفات كالصورة، والأصابع، والساق، والاستواء، والنزول، وغيرها.

في حين نجده يوافق أهل السنة في جملة مسائل منها، مسألة الرؤية في الآخرة، والقرآن، وأنه كلام الله، وغالب مباحث أفعال الله تعالى، في باب القضاء والقدر.

في حين يوافق الأشاعرة في عدم تعليل أفعال الله تعالى خلافاً لأهل السنة والجماعة[٦٦].

هذه بعض المسائل التي تبين اضطراب ابن حزم في منهجه العقدي مما يتعذر معه نسبته لطائفة معينة.

ب – منهج ابن حزم في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل

اتسم منهج ابن حزم في كتابه الفصل بعدة سمات من أبرزها ما يلي:

١–شمل كتاب الفصل الحديث عن الفرق الإسلامية والملل الأخرى من مختلف الأديان، وركز ابن حزم حديثه عن أهل الكتاب، وأولاهم اهتماماً كبيراً حتى استغرق ذلك جزءاً كبيراً من الكتاب، بينما حديثه عن الفرق الإسلامية كان مختصراً ويسيراً.

٢–لم يعتمد ابن حزم في كتابه على حديث الافتراق، بل ضعفه وأبطله وأنكر صحته[٦٧].

٣–جعل ابن حزم أصول الفرق خمسة وهي: "المعتزلة، والمرجئة، والشيعة، والخوارج، وأهل السنة"[٦٨].

٤–سلك ابن حزم في طريقة عرضه لآراء الفرق الطريقتين المتبعتين في ذلك، وهما: إما جعل المسائل أصولاً ثم ذكر من قال بها من مختلف الطوائف، وهي التي استخدمها أكثر، وإما جعل أصحاب المقالات وزعماء الفرق أصولاً، ثم ذكر قولهم في كل مسألة.

٥–سلك ابن حزم في كتابه منهج التقرير والنقد لمختلف الآراء، ولم يكتفي بمجرد العرض

---

[٦٦] انظر حول الآراء العقدية لابن حزم كتاب ابن حزم وموقفه من الإلهيات للدكتور أحمد بن ناصر الحمد.

[٦٧] الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٣٨/٣ ط/دار الجيل.

[٦٨] المصدر السابق ٨٨/٢.

الموضوعي لها، بل لم يدخر جهداً في إبطال ونقد كل مذهب ومقالة عرضها تخالف ما يعتقده، وقد كان في نقده ومناقشته لتلك الآراء عنيفاً، شديداً في عباراته وألفاظه، قوياً في رده، خاصة في مناقشته لأهل الكتاب فيما تضمنه كتابهم المقدس . بزعمهم . حيث نقده نقداً شديداً، وبين تحريفه.

ومع قسوته وعنفه إلا أنه كان موضوعياً، وكان نقده علمياً لا عاطفياً حماسياً.

٦-جاء كتاب ابن حزم مضطرباً في ترتيبه غير منظم، وقد أصاب السبكي في ذلك عندما قال: "وكتاب الملل والنحل للشهرستاني هو عندي خير كتاب صنف في هذا الباب، مصنف ابن حزم وإن كان أبسط منه، إلا أنه مبدد ليس له نظام..."[٦٩].

وقد علل أصحاب دائرة المعارف الإسلامية وجود هذا الاضطراب في كتاب ابن حزم بقولهم: "إن الترتيب المنطقي لهذا الكتاب . الفصل . مضطرب إلى حد ما؛ بسبب إدماج رسائل مستقلة فيه..."[٧٠][٧١].

رابعاً: كتاب الملل والنحل للشهرستاني "ت ٥٤٨"

١ – **عقيدته:** هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨ هـ[٧٢]، وكان الشهرستاني أشعري المعتقد ويدل لذلك عدة أمور منها:

١-إجماع المترجمين له على نسبته إلى المذهب الأشعري في المعتقد، ولم يخالف في ذلك أحد[٧٣].

٢-دلالة العديد من كتبه على انتسابه إلى المذهب الأشعري في المعتقد، مثل كتابه الملل والنحل الذي قرر فيه أن المذهب الأشعري هو مذهب أهل السنة والجماعة، وتصريحه في كتابه نهاية الإقدام حين يعرض آراء المذهب الأشعري بقوله: "نقول، قلنا، قولنا، قول الحق"[٧٤]، وغير ذلك؛ بخلاف عرض آراء المذاهب المخالفة، حيث يصدرها بقوله: "قالوا، يقولون، قولهم، حققوه"[٧٥]، وغير ذلك.

فكاتبه هذا . في جملته . تقرير للمذهب الأشعري بأدلته وحججه ومناقشة الآراء المخالفة والرد عليها[٧٦].

---

[٦٩] طبقات الشافعية للسبكي ٧٨/٣.

[٧٠] دائرة المعارف الإسلامية ٢٥٤/١.

[٧١] انظر حول هذه النقاط كتاب الشهرستاني ومنهجه في كتابه الملل والنحل ص ٢٦٩-٢٧٣ بتصرف.

[٧٢] انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٢٨٦/٢٠، طبقات الشافعية للسبكي ٧٨/٤، وفيات الأعيان ٢٧٣/٤، الوافي بالوفيات للصفدي ٢٧٨/٣، المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ٢٧/٣، تاريخ ابن الوردي ٨٦/٢ وغيرها.

[٧٣] انظر المشترك وضعاً والمفترق صقعاً لياقوت الحموي ص ٢٧٩، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢٧٤/٤، الوافي بالوفيات للصفدي ٢٧٨/٣، المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ٢٧/٣، تاريخ ابن الوردي ٨٦/٢.

[٧٤] انظر نهاية الإقدام ص ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٩٢، ٣١١، ٣٨٧، ٣٩٩، وغيرها من المواضع.

[٧٥] انظر المصدر السابق ص ٢٨١، ٣٠٥، ٤٠٥، ٤٠٨، ٤٠٩، وغيرها من المواضع.

[٧٦] انظر لمزيد من التفصيل في مذهبه العقدي "الشهرستاني وكتابه الملل والنحل ص ٩٠-١١٧.

ومن الأمور التي اشتهرت في حق الشهرستاني اتهامه بالميل إلى الفلاسفة الباطنية، ومن العلماء الذين وجهوا له هذا الاتهام ابن أرسلان الخوارزمي[٧٧]، وعلي بن أبي القاسم البيهقي[٧٨]، والسمعاني [٧٩]، والذهبي [٨٠].

وقد دافع عنه آخرون وحاولوا تبرئته من هذه التهمة منهم السبكي[٨١]، وابن حجر العسقلاني[٨٢]،والدكتورة سهير محمد مختار[٨٣].

وقد حقق القول في هذه المسألة شيخ الإسلام ابن تيمية وبين رأيه في هذه التهمة قائلاً: "أما قوله (يعني بذلك ابن مطهر الحلي) إن الشهرستاني من أشد المتعصبين على الإمامية، فليس كذلك بل يميل كثيراً إلى أشياء من أمورهم، بل يذكر أحياناً أشياء من كلام الإسماعيلية الباطنية منهم ويوجهه؛ ولذا اتهمه الناس بالإسماعيلية، وإن لم يكن الأمر كذلك، وقد ذكر من اتهمه شواهد من كلامه وسيرته، وقد يقال: هو من الشيعة بوجه، ومع أصحاب الأشعري بوجه... وبالجملة فالشهرستاني يظهر الميل إلى الشيعة إما بباطنه وإما مداهنة لهم..."[٨٤].

ومما يؤكد ذلك أن الشهرستاني صنف في ذكر فضائح الباطنية[٨٥]، وفي الرد على ابن سينا الفيلسوف الإسماعيلي، يقول ابن القيم: "وصارع محمد الشهرستاني ابن سينا في كتاب سماه (المصارعة) أبطل فيه قوله بقدم العالم، وإنكار المعاد، ونفي علم الرب تعالى وقدرته وخلقه العالم" [٨٦].

وإن كان للشهرستاني بعض الردود على مطاعن الشيعة في الصحابة[٨٧]، ووصفهم بالحيرة والضياع[٨٨]، إلا أن ميله للتشيع أمر مؤكد في حقه كما قال شيخ الإسلام عنه: "وبالجملة فالشهرستاني يظهر الميل إلى الشيعة إما بباطنه وإما مداهنة لهم، فإن هذا الكتاب ـ الملل والنحل ـ صنفه لرئيس من رؤسائهم، وكانت له ولاية ديوانية، وكان الشهرستاني مقصود في استعطافه له، وكذلك صنف له كتاب

---

[٧٧] انظر معجم البلدان ٣٧٧/٣، وسير أعلام النبلاء ٢٨٨/٢٠، ولسان الميزان ٢٦٣/٥.

[٧٨] انظر تاريخ حكماء الإسلام ص ١٤٢.

[٧٩] انظر التحبير في المعجم الكبير ١٦١/٢، وسير أعلام النبلاء ٢٨٧/٢٠.

[٨٠] انظر العبر في خبر من غبر ٧/٣.

[٨١] انظر طبقات الشافعية ٧٩/٤.

[٨٢] انظر لسان الميزان ٢٦٤/٥.

[٨٣] انظر الشهرستاني وآراؤه الكلامية والفلسفية ص ٣٦٢.

[٨٤] منهاج السنة ٣٠٥/٦-٣٠٧.

[٨٥] درء تعارض العقل والنقل ٨/٥.

[٨٦] إغاثة اللهفان ٣٨١/٢، وانظر مقدمة الشهرستاني لكتابه مصارعة الفلاسفة ص ١٦، ونهاية الإقدام ص ٥، ٢٣.

[٨٧] انظر الملل والنحل ١٦٤/١-١٦٥.

[٨٨] المصدر السابق ١٧٢/١، ٩٣/١.

المصارعة..."[٨٩].

وربما كان هذا التذبذب محاولة منه لإرضاء الطرفين، أهل السنة والشيعة، والله أعلم.

ب – منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل

تتمثل أبرز سمات المنهج الذي سار عليه الشهرستاني في كتابه الملل والنحل في النقاط التالية:

١–جمعه بين الحديث عن الفرق الإسلامية وملل ومذاهب أخرى، فكتابه أشبه بالموسوعة المختصرة في الأديان والمذاهب والفرق المختلفة.

٢–اعتماده حديث الافتراق، حيث بني تقسيمه للفرق على ضوئه، وتكلف في حصر الفرق وتحديدها ليطابق العدد المذكور في ذلك الحديث.

٣–اشترط الشهرستاني في أول كتابه بأن يسلك المنهج الموضوعي في العرض دون التعقيب أو النقد أو الرد[٩٠]، إلا أنه لم يلتزم بهذا الشرط بل كانت له بعض التعقيبات والمداخلات أثناء حديثه عن بعض الفرق والطوائف.

٤–اقتصر في عرض آراء ومقالات الفرق على طريقة جعل أصحاب المقالات وزعماء الفرق أصولاً، ثم إيراد تحت كل منهم آراءه في مسألة مسألة، وعلل ذلك بأنه أضبط للأقسام وأليق ببيان الحساب[٩١].

٥–حصر المؤلف أصول الفرق في أربع فرق كبار هي: "القدرية، الصفاتية، الخوارج، الشيعة"[٩٢].

٦–عدم الدقة في النقل وقلة العلم بمقالات بعض الفرق، كما قال ذلك عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض المقارنة بين كتابه وكتاب المقالات للأشعري الذي وصفه بضد ذلك فقال: "...والشهرستاني قد نقل في غير موضع أقوالاً ضعيفة، يعرفها من يعرف مقالات الناس، مع أن كتابه أجمع من أكثر الكتب المصنفة في المقالات وأجود نقلاً، ولكن هذا الباب وقع فيه ما وقع. ولهذا لما كان خبيراً بقول الأشعرية وقول ابن سينا ونحوه من الفلاسفة،كان أجود ما نقله قول هاتين الطائفتين. وأما الصحابة والتابعون وأئمة السنة والحديث، فلا هو وأمثاله يعرفون أقوالهم، بل ولا سمعوها على وجهها بنقل أهل العلم لها بالأسانيد المعروفة، وإنما سمعوا جملاً تشتمل على حق وباطل"[٩٣].

ولعل هذا الخلل وقع منه بسبب مصادره في النقل حيث صرح شيخ الإسلام بأن أكثر مصادره هي كتب المعتزلة وقلة خبرته بالحديث وآثار السلف، فقال: "والشهرستاني أكثر ما ينقله من المقالات

---

[٨٩] منهاج السنة ٣٠٦/٦، وانظر اعتراف الشهرستاني بذلك في مصارعة الفلاسفة ص ١٤.

[٩٠] الملل والنحل ١١/١.

[٩١] المصدر السابق ١٠/١-١١.

[٩٢] المصدر السابق ١٠/١.

[٩٣] منهاج السنة ٣٠٤/٦ ـ٣٠٥

من كتب المعتزلة..."[٩٤].

وقال أيضاً: "والشهرستاني لا خبرة له بالحديث وآثار الصحابة والتابعين، ولهذا نقل في كتابه هذا ما ينقله من اختلاف غير المسلمين واختلاف المسلمين، ولم ينقل مع هذا مذهب الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في الأصول الكبار، لأنه لم يكن يعرف هذا هو وأمثاله من أهل الكلام، وإنما ينقلون ما يجدونه في كتب المقالات، وتلك فيها أكاذيب كثيرة من جنس مافي التوريخ "[٩٥].

٧-تضمن منهج الشهرستاني في كتابه العناية بالأسماء والمصطلحات، فلا يكاد يذكر فرقة في حديثه إلا يسميها، بل قد يذكر أكثر من اسم لها إن وجد، ويعزو الآراء إلى قائليها، سواءً كانوا فرقة أو أفراداً.

٨-تميز كتاب الشهرستاني عن غيره من المصنفات في المقالات بحسن التنظيم، وجودة الترتيب للفرق وآرائهم.

٩-تميز منهجه العام في العرض بالإيجاز والاختصار.

١٠-قدم لكتابه قبل الخوض في آراء الفرق بمقدمات ضمنها ذكر الخلافات الواقعة في أول الأمة، وتوسع في ذلك، وبين كيف وقع الافتراق، وأشار إلى فرق الأمة إجمالاً، حتى كأنما أجمل كتابه في تلك المقدمات[٩٦].

---

[٩٤] منهاج السنة ٣٠٧/٦

[٩٥] منهاج السنة ٣١٩/٦ ـ٣٢٠

[٩٦] انظر حول هذه النقاط كتاب الشهرستاني ومنهجه في كتابه الملل والنحل ص ٢٥٣-٢٧٣، بتصرف.

عبد الله بن سبأ وأثره في اذكاء الفتنة

أورد الطبرى وغيره روايات عدة تحكي أسباب الفتنة وعواملها، واذا كانت رواية سيف ابن عمر التميمي. وهي واحدة من هذه الروايات ـــ ترسم بشكل واضح أثر عبد الله بن سبأ في الفتنة، فسنعرض ـــ باجمال، وقبل التصدي لرواية سيف ـــ للروايات الواردة من طرق أخرى.

والذي يقابلنا في أخبار الفتنة نوعان من المصادر :

أولهما : روايات الإخباريين ذات العرض الكامل أو القريبة من التكامل في سرد الحادثة التاريخية أمثال : رواية أبي مخنف (١٤٧ هـ.)، رواية سيف بن عمر (١٨٠ هـ.)، رواية الواقدى (٢٠٧ هـ.).

ثانيهما : الأخبار المقطعة، وهي المروية عن شهود العيان، أو عمن أدركوا شهود العيان أو كانوا قريبين من زمنهم، وميزتها أنها أخبار مقطعة لا تكاد تجمع الحادثة كما هو الحال في نسق الرواية التاريخية، أما توثيقها فيخضع لنقد رجال الاسناد فيها، وتقدم لنا المصادر التي بين أيدينا سبع روايات منها[1] وهي :

١ ـــ رواية الزبير بن العوام رضي الله عنه (وهو من شهود العيان للفتنة).

٢ ـــ رواية أبي خنيس (سهم الأزدى) (وهو ممن حضر الحادثة).

٣ ـــ رواية أبي سعد مولى أبي أسيد الأنصارى (وقد شهد الفتنة وعرف أحوالها).

٤ ـــ رواية الأحنف بن قيس (– ٧٢ هـ.) وهو ممن عاصر الفتنة وكان قريبا منها.

٥ ـــ رواية سعيد بن المسيب (١٣ – ٩٤ هـ.).

٦ ـــ رواية يزيد بن حبيب (٥٣ – ١٢٨ هـ.).

٧ ـــ رواية محمد بن شهاب الزهرى (٥٨ – ١٢٤ هـ.).

---

(١) يوسف العش ـــ الدولة الأموية ص ٣٠

أما المنهج الذي سنلتزمه ازاء هذين النوعين من المصادر، فهو دراسة أخبار شهود ، أو من نقلها عنهم دراسة نقدية، حتى اذا تبينا الصحيح منها، اقتربنا من رواية اريين اللاحقين فما كان منها يتسق مع تلك الأخبار الصحيحة قبلناه، وجعلنا منه مادة ى هذه الأخبار المقطعة، وسردا يكشف عما يكتنف هذه الأخبار الصحية من غموض...

ونبدأ واضعين هذا السؤال : ما مدى الصحة في هذه المرويات السبع ؟ ويجيب ور العش فيقول : « وكم كان يهمنا أن تكون تلك الروايات السبع صحيحة النسبة الى ، اذن لكانت كنزا يكشف عن الفتنة، لكنها ـــ وللأسف ـــ ليست في مستوى واحد صحة... »[1].

ولو عدنا الى هذه الروايات، لوجدنا الرواية المنسوبة الى سعيد بن المسيب قد جاء : أن عثمان لما استخلف كره ذلك بعض الصحابة، لمحبته قومه، وتوليته لهم[2].

وأن طلحة كان من المؤنبين لعثمان حين قدم وفد مصر يشكون الى الصحابة صنيع ي سرح بهم، بل تُظهر الرواية شدة لهجته عليه[3].

وجاء فيها أن الصحابة ـــ بمجملهم ـــ نقموا على عثمان، مع من نقم، وحنقوا عليه صة الكتاب[4] ، وخاصة أعوان أبي ذرّ، وابن مسعود، وعمار ![5].

لدولة الأموية ص ٣١

لذهبي، تاريخ الاسلام ج ١٣٧/٢

لمصدر نفسه ج ١٣٧/٢

و الكتاب الذي جاء به الوفد الذين توجهوا إلى مصر ـــ بعد خروجهم من المدينة ـــ (وسنأتي على بيانه)

ارخ الاسلام ج ١٣٨/٢

ونكتفي بهذا القدر من بيان ما اشتملت عليه هذه الرواية، ولعل في ذلك ما يكشف عن ضعف داخلي في متن هذه الرواية، فمن المستبعد أن يكون شيئًا من هذا عند الصحابة، والأخبار الصحيحة ترده، على أن الرواية لم تكم سلما في سندها[1] ففيها اسقاط (تدليس) وهو ليس من نوع التدليس الممكن إقراره والتجاوز عنه[2].

ومن هنا يتبين ضعف هذه الرواية، واستحالة نسبتها الى سعيد بن المسيب رحمه الله.

أما رواية الزهرى، فتظهر طلحة والزبير رضي الله عنهما مناوئين لعلي بالخلافة، وأنهم أحق بها منه « لم نره أولى بها منّا »[3]، كما يظهر فيها أن الصحابة ــ وخاصة المهاجرين ــ هم قتلة عثمان !، فقد جاء في خطاب العبدى مشيرا الى بعض المهاجرين قوله : « ... ثم أنكرتم من ذلك الرجل شيئا فقتلتموه عن غير مشورة منا... »[4].

فهل يمكن بعد هذا قبول هذه الرواية ؟ وهل تصح نسبتها الى الزهرى ؟.

ولعل في ضعف سندها[5] الى جانب محتواها، ما يدعو الى تركها.

---

(١) سند الرواية هو : محمد بن عيسى بن سميع، عن أبي ذؤيب، عن الزهري، قلت لسعيد بن المسيب.. (تاريخ الاسلام ج ١٣٧/٢)

(٢) فقد اسقط منها (راو) متهم بالوضع والكذب، وهو «اسماعيل بن يحيى بن عبيد الله» ولذلك جاء تضعيف العلماء رحمهم الله ــ لهذه الرواية وبيان زيفها، اثناء حديثهم عن محمد بن عيسى (راوي الخبر عن أبي ذؤيب)، يقول البخاري عن محمد بن عيسى بن سميع : «يقال انه لم يسمع من أبي ذؤيب هذا الحديث، يعني حديثه عن الزهري في مقتل عثمان» (ابن حجر التهذيب ج ٣٩١/٩)، ويقول ابن حبان ان ابن سميع لم يسمع حديثه من أبي ذؤيب، وإنما سمعه من اسماعيل ابن يحيى فدلّس عنه، واسماعيل رواه (التهذيب ج ٣٩١/٩) وقال الحكم : «أبو محمد ــ يعني ابن سميع ــ مستقيم الحديث إلا أنه روى عن أبي ذؤيب حديثا منكرا، وهو حديث مقتل عثمان، ويقال كان في كتابه : عن اسماعيل بن يحيى عن أبي ذؤيب فأسقطه، واسماعيل ذاهب الحديث» (التهذيب ج ٣٩٢/٩):
بل حتى ابن سميع الذي وثقه ابن شاهين، والحاكم (التهذيب ج ٣٩١/٩) لم يكن توثيقه محل اتفاق، فقد قال فيه أبو حاتم : لا يحتج به (الكاشف ج ٨٧/٣)، وقال ابن حجر : صدوق يخطىء، ويدلس، ورمي بالقدر (التقريب ج ١٩٨/٢)

(٣) الطبري ج ٤٦٩/٤

(٤) المصدر نفسه ج ٤٧٠/٤

(٥) في سندها، يونس بن يزيد بن أبي النجاد الأيلي. وقد قال « أبو زرعه » سمعت أحمد بن حنبل يقول : في حديث يونس عن الزهري منكرات (التهذيب ج ٤٥١/١١) وسئل أحمد : من أثبت في الزهري ؟
قال معمر، قيل «فيونس»، قال : روى أحاديث منكره (التهذيب ج ٤٥١/١١) ويقول ابن حجر : ان في روايته عن الزهري وهما قليلا، وفي غير الزهري خطأ (التقريب ج ٣٨٦/٢) أما الدهبي فقد وثقة (ميزان الاعتدال ج ٤٨٤/٤٠)

أما رواية يزيد بن أبي حبيب ففي سندها عبد الله بن لهيعة وقد تكلم فيه المحدثون[1] وفيها أخبار غريبة لم ترد في الروايات الأخرى[2].

أما رواية الزبير، فهي تصور المحاصرين لعثمان أصحاب حق يرضون وينضبون من أجل الله، وفي الجانب الآخر تصور عثمان رضي الله عنه صاحب ذنب لا بد أن يعلن توبته منه ![3].

بل انها تصور عثمان ــ وحاشاه عن ذلك ــ غادرا يطلب من علي أن يتوسط بينه وبين القوم، ليمهلوه حتى يرد اليهم مظالمهم، ثم هو يتأهب للقتال ويستعد بالسلاح في فترة الامهال ![4].

وهل نتصور أن تكون تلك رواية الزبير للفتنة، ورؤيته للخليفة عثمان، وهو الذي خرج مع أم المؤمنين عائشة وطلحة رضي الله عنهم مدافعا عن عثمان، ومطالبا بدمه من قتلته، كما سيأتي بيانه عند الحديث عن خروجهم الى البصرة، وحدوث وقعة الجمل ؟.

هذا فوق أن في سند الرواية مقالاً،[5] وآفة الأخبار من رواتها !.

ويبقى معنا الروايات الثلاث :

رواية أبي سعيد (مولى أبي أسيد الأنصارى)، ورواية سهم الأزدى ورواية الأحنف ابن قيس وكلها مروية بسند جيد[6] لا يدخل عليها منه، أما ما جاء فيها فنقتبس منها الفقرات الآتية :

---

(١) قال عنه ابن خزيمة : لست ممن يخرج حديثه إذا انفرد به (التهذيب ج ٣٧٧٥) وقد انفرد بهذه الرواية (العش : الدولة الأموية ص ٣١) ويقول الذهبي : العمل على تضعيف حديثه (الكاشف ج ١٢٢/٢)

(٢) الطبري ج ٣٩٤/٤، وقد ورد في الرواية ان الذي تولى قتل عثمان : نهران الأصبحي، وكان قاتل عبد الله بن بسره، وهو رجل من بني عبد الدار.

(٣) الطبري ج ٣٦٩/٤

(٤) المصدر نفسه ج ٣٧٠/٤

(٥) في سند الرواية، عمر بن حماد، وقد قال فيه أبو داود : كان من الرافضة، ذكر عثمان بشيء فطلبه السلطان فهرب (التهذيب ج ٢٣/٨) وقال الساجي، يتهم في عثمان، وعنده مناكير (التهذيب ج ٢٣/٨)

(٦) سيكون الحديث عن سند كل رواية عند التعرض لها.

١ ــ جاء في رواية أبي سعيد : رجوع وفد مصر راضيـن، وبينما هم في الطريق اذا براكب يعترض لهم تارة ويختفي عنهم أخرى، فقالوا مالك ؟ فأخبرهم أنه رسول أمير المؤمنين الى عامله بمصر، وفتشوه فاذا معه كتاب، واذا في الكتاب الأمر بقتل هؤلاء، فرجعوا الى المدينة، وأتوا عليا وأطلعوه على كتاب عثمان، وأمروه بالقيام معهم الى عثمان فأبى، فقالوا : فلم كتبت الينا ؟ (وهو اتهام لعلي بالكتابة اليهم) فقال : والله ما كتبت اليكم كتابا قط، وجاؤوا الى عثمان، واستنكروا عليه الكتاب، فانكره، وطلب منهم البينة عليه، أو يقبلوا يمينه، فقالوا : هذا خاتمك، فأشار الى أن من الممكن أن ينقش على الخاتم !، كما أن الكتاب يكتب على لسان الرجل ! ثم حصروه[1].

ونحن نتبين من طبيعة هذه الأعمال هوية أصحابها، وأنهم لم يكونوا من الصحابة (كما يبدو في الروايات السابقة)، أما من يكونون ؟ فهذا ما تقف هذه الرواية دون أن تكشفه !.

٢ ــ وجاء في رواية الأزدى ما يكشف ــ قليلا ــ بعض ما ورد في الرواية السابقة... فيقول عن وفد مصر : جاء ركب الشقا من أهل مصر، ومحمد بن أبي بكر ــ وان كان مع الوفد القادم ــ يخرج من عند عثمان، بعد أن ذكره فاستحى، ولم يكن من قتلة عثمان، ثم دخل عليه رومان بن وردان، فقتله[2].

---

(١) الطبري ج ٤/٣٥٤ــ٣٥٦، وسندها كالآتي : يعقوب ابن ابراهيم (وهو ثقة، وكان من الحفاظ تقريب التهذيب ج ٢/٣٧٤) عن معتمر بن سليمان (وهو ثقة. التهذيب ج ١٠/٢٢٧، التقريب ج ٢/٢٦٣)، عن أبيه (سليمان بن طرخان التيمي) وهو ثقة عابد، كما في التقريب ج ١/٣٢٦، عن أبي نضره (المنذر بن مالك بن مطعه) وهو ثقة أيضا، التهذيب ج ١٠/٣٠٢، التقريب ج ٢/٢٧٥) أما أبو سعيد، فقد ذكره الذهبي في الميزان (ج ٤/١٨٢) فيمن أكثر الرواية عنه أبو نظره، كما ذكره ابن حجر في التهذيب (ج ١٠/٣٠٢) كما ترجم له الحاكم في « الاسامي والكنى » (عن يوسف العش. الدولة الأموية.. ص ٣٤).

(٢) تاريخ دمشق (الظاهرية) ق : ١٨٩ــ١٩٠ (عن يوسف العش : الدولة الأموية ص ٤١)، وفي سناده : ثور بن يزيد الرحبي وهو ثقة (التهذيب ج ٢/٣٣)، وان كان يرمي بالقدر فهو صحيح الحديث (الميزان ج ١/٣٧٤، واسماعيل بن عياش وهو عالم أهل الشام، وقد مات ولم يخلف مثله (الميزان، ج ١/٢٤٠) وهو حجة في حديثه عن الشاميين (التهذيب ج ١/٣٢٤) وقد حدث هنا عن الكلاعي، وهو حمصي (الميزان ج ١/٣٧٤)

٣ ــ وتكشف الرواية الثالثة (رواية الأحنف) أشياء أخرى، فطلحة والزبير، وعلي (المتهم بعضهم ــ في بعض الروايات ــ في الشركة في دم عثمان) يؤكدون لعثمان ما وعده به الرسول ﷺ من الأجر لقاء أعمال قام بها، بعد أن سألهم والناس مجتمعون في المسجد حولهم[١] وهذا هو الذي يهمنا ــ الآن ــ من هذه الرواية.

وباستعراضنا للروايات السبع، يتبين بطلان بعضها، وحاجة الروايات الصحيحة الى كشف مكنونها، وايضاح المجمل فيها.

وبالجملة فالروايات الصحيحة الاسناد، تؤكد أن هناك مؤامرة تحاك، وأن أبطالها غير بارزين، فاذا ما عدنا الى روايات الاخباريين الثلاث (أبي مخنف، سيف، الواقدى) وجدنا الآتي :

١ ــ يظهر في روايتي : أبي مخنف، والواقدى أن الصحابة هم الذين كانوا يحركون المؤامرة، ويثيرون الفتنة...

فأبو مخنف ــ مثلا ــ لا يتورع أن يتهم عثمان بأنه الخليفة الذي كثرت سقطاته، فاستحق ما استحقه[٢] ويظهر طلحة كواحد من الثائرين على عثمان، والمؤلبين ضده[٣].

ولا تختلف روايات الواقدى كثيرا عن روايات أبي مخنف فعمرو بن العاص رضي الله عنه، يقدم المدينة، ويأخذ في الطعن على عثمان[٤] وحينما جاءه الخبر بقتل عثمان قال : « أنا أبو عبد الله، اذا حككت قرحة نكأتها، ان كنت لأحرض عليه، حتى اني لأحرض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل... »[٥].

---

(١) الطبري ج ٤/٤٩٧، وسندها عن يعقوب بن ابراهيم (وقد تقدم توثيقه، التقريب ج ٢/٣٧٤ عن عبد الله بن ادريس وهو ثقة (التهذيب ج ٥/١٤٤)، بل كان نسيجا وحده (الكاشف ج ٢/٧١)، عن حصين بن عبد الرحمن السلمي، وهو ثقة مأمون، كما قال أبو حاتم (التهذيب ج ٢/٣٨١) وهو ثقة حجة (الكشاف ج ١/٢٣٧) عن عمرو بن جأوان التميمي، وهو معدود في الثقات (الكاشف ٢/٣٢٥، التهذيب ج ٨/١٢).

(٢) البلاذري. انساب الأشراف ج ٥/٥٩، ٦٢، هذا فوق أن في سند الرواية مقال لضعف أبي مخنف نفسه وقد سبق البيان (في الفصل الثاني)

(٣) المصدر نفسه ج ٥/٧٨

(٤) تاريخ الطبري ج ٤/٣٥٦

(٥) المصدر نفسه ج ٤/٣٥٧

أما طلحة، فالمؤامرة بأمره، وهو حامل الثوار ومؤلبهم !(١).

كما يظهر في رواية الواقدى (علي) كواحد من الذين اسهموا في نهاية عثمان، وبنو أمية يذكرون ذلك له ويخوفونه عاقبة اقبال الدنيا عليه : « يا علي أهلكتنا، وصنعت هذا الصنيع بأمير المؤمنين، أما والله لئن بلغت الذي تريد لتمرّنّ عليك الدنيا... »(٢).

وهناك اتهامات غير هذه... بل هناك روايات أخرى للواقدى، ومنها ما أعرض الطبرى عنها لبشاعتها وكراهيته لها فلم يذكرها(٣).

ورايتا أبي مخنف، والواقدى لا تضيفان جديدا للروايات التي قبلهما، خاصة ونحن أمام أيد خفية تحرك الفتنة، مازال أمرها غامضا، وخلافا لروايتي أبي مخنف، والواقدى تظهر الروايات الصحيحة أن كبار الصحابة كعلي وطلحة والزبير... وغيرهم كانوا من المؤازرين لعثمان والمنافحين عنه، ثم المطالبين بدمه بعد قتله، على حين يظهرون في هاتين الروايتين من المحرضين على عثمان، والمسؤولين عن قتله، فأي تعارض بعد هذا ؟.

وهنا نأتي الى رواية سيف بن عمر المتبقية لنا، لعلها تشفى الغلة وتقضي الحاجة.

وهذا نص الرواية : عن سيف عن شيوخه قال : « كان عبد الله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء، أمه سوداء، فأسلم زمن عثمان، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر، فاعتمر فيهم فقال لهم فيما يقول : لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذب بأن محمدا يرجع، وقد قال الله عز وجل : ﴿ **ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد** ﴾ فمحمد أحق بالرجوع من عيسى، قال : فقبل ذلك عنه ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها، ثم قال لهم بعد ذلك : انه كان ألف نبي ولكل نبي وصي، وكان علي وصي محمد، ثم قال : محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء، ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصي رسول الله ﷺ، وتناول أمر الأمة ! ثم قال لهم بعد ذلك : ان عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله ﷺ

---

(١) المصدر نفسه ج ٣٧٩/٤

(٢) المصدر نفسه ج ٣٦٥/٤

(٣) المصدر نفسه ج ٣٥٦/٤

فانهضوا في هذا الأمر فحركوه، ابدأوا بالطعن على امرائكم واظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم الى هذا الأمر، فبث دعاته، وكاتب من كان أستفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر الى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون الى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم اخوانهم بمثل ذلك ! ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر بما يصنعون فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض اذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرون غير ما يبدون فيقول أهل كل مصر، انا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء الا أهل المدينة فانهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا : انا لفي عافية مما فيه الناس ».

(وجامعه محمد وطلحة من هذا المكان، قالوا)[1] : فأتو عثمان فقالوا : يا أمير المؤمنين، أيأتيك عن الناس الذي يأتينا ؟ قال : لا والله، ما جاءني الا السلامة، قالوا : فانا قد أتانا، واخبروه بالذى اسقطوا اليهم، قال : فأنتم شركائي وشهود المؤمنين فأشيروا عليّ قالوا : نشير عليك أن تبعث رجالا ممن تثق بهم الى الأمصار حتى يرجعوا اليك بأخبارهم فدعا محمد بن مسلمة فأرسله الى الكوفة، وأرسل اسامة بن زيد الى البصرة، وأرسل عمار ابن ياسر إلى مصر وأرسل عبد الله بن عمر الى الشام، وفرّق رجالا سواهم، فرجعوا جميعا قبل عمار، فقالوا، أيها الناس ما أنكرنا شيئا ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم وقالوا جميعا : الأمر أمر المسلمين، الا أن أمراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم، واستبطأ الناس عمارا حتى ظنوا أنه قد اغتيل، فلم يفجأهم الا كتاب من عبد الله بن سعد بن أبي سرح يخبرهم أن عمارا قد استماله قوم بمصر، وقد انقطعوا اليه، فيهم عبد الله بن السوداء، وخالد ابن ملجم وسودان بن حمران، وكنانة بن بشر[2] يريدونه على أن يقول بقولهم، يزعمون أن محمدا راجع، ويدعونه الى خلع عثمان، ويخبرونه أن رأى أهل المدينة على مثل رأيهم، فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في قتله وقتلهم قبل أن يبايعهم، فكتب اليه عثمان : لعمرى

---

(١) هذه الاشارة تعني مشاركة محمد وطلحة ــ في الخبر ــ لعطية الذي نقل سيف عنه الخبر، والثلاثة كلهم من شيوخ سيف، أما محمد فهو ابن عبد الله بن سواد بن نويره، أما طلحة فهو طلحة بن الأعلم الحنفي، وعطيه هو ابن الحارث الهمداني، أما سيف فهو ابن عمر الضبي..

(٢) الى هنا، تنتهي رواية سيف عند الطبري (ج ٤/٣٤٠، ٣٤١)، وتكملتها من « ابن عساكر »

انك لجريء، ياابن أم عبد الله، لا والله لا أقتله ولا أنكأه، ولا اياهم حتى يكون الله عز وجل ينتقم منهم ومنه بمن أحب، فدعهم ما لم يخلعوا يدا من طاعة يخوضوا ويلعبوا...[1].

اذن فالذى يظهر من رواية سيف أن عبد الله بن سبأ واتباعه من حوله هم الأيدى الخفية المحركة للفتنة والذين جاءت الروايات (الصحيحة) بالاشارة اليهم، ولم تبن عنهم، ورسمت هيكلهم ولم توضح شخوصهم على أن هناك أخبارا متناثرة عند المؤرخين اللاحقين تكشف آثار ابن سبأ في الفتنة وتضاف الى رواية سيف السابقة.

فابن عساكر يؤكد الدور الذي قام به ابن سبأ في الفتنة ويقول : « ...وطاف بلاد المسلمين ليلفتهم عن طاعة الأئمة، ويدخل بينهم الشر، وقد دخل دمشق لذلك في زمن عثمان بن عفان... »[2].

ويشير المقريزى الى أن ابن سبأ هو الذي أثار الفتنة ضد عثمان حتى قتل[3].

وفي حديث السيوطي عن مصر ــ في تلك الفترة ــ ما يفيد انكار أهلها على ابن سبأ في البداية ثم افتتن به بشر كثير منهم، وكان ذلك مبدأ تأليبهم على عثمان[4].

والذي يبدو أن هذه الآثار في مصر استلزمت جهدا، وتخطيطا كان المتآمرون يحركون خيوطه فقد ذكر ابن كثير أن من أسباب قتل عثمان عزله عمرو بن العاص عن مصر، وتوليته ابن أبي سرح مكانه، وذلك لشدة عمرو وتضييقه على الخوارج المصريين، ولين ابن سعد وانشغاله بالفتوح[5] الا أن هذا الاجمال الذي نبه اليه ابن كثير وهو يشير الى أثر الخوراج المصريين نجد له بيانا وتخصيصا، وهذا التخصيص لا يتعدى دائرة ابن سبأ وأتباعه.

---

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ص ١٢٤/أ، وفي نهاية الرواية يظهر ندم عثمان وخاصة اذا لقي من يثق به.
(٢) تاريخ مدينة دمشق ق ١٢٣/ب
(٣) المواعظ والاعتبار ج ٢/٣٥٧
(٤) حسن المحاضرة ج ٢/١٦٥
(٥) البداية والنهاية ج ٧/١٨٦

جاء في رواية لأبي حارثة وأبي عثمان أن ابن السوداء لما قدم مصر عرض لأهلها بالكفر فأبعدوه ثم عرض لهم بالشقاق فأطمعوه، وبدأ فطعن على عمرو بن العاص، حتى حرك بعضا من أهل مصر، فسألوا الخليفة أن يعفهم منه، ويولي قرشيا يسوى بينهم ! فأجاب عثمان، وجعل ابن سعد على الخراج، وأبقى عمرا على الحرب ولم يعزله، ثم سعوا بين الرجلين، وكتب كل واحد منهما الى عثمان بالذى بلغه عن صاحبه، وركبوا هم ليستعفوا من عمرو ويسألوا سعدا، فأعفاهم[1]، وكأنه مدرك أن وراء الأكمة ما وراءها ![2].

وذكر الذهبي : أن ابن السوداء لما خرج الى مصر نزل على كنانة بن بشر مرّة وعلى سودان بن حمران مرّة وانقطع الى الغافقي فكلمه وأطاف به خالد بن ملجم وعبد الله ابن رزين وأشباه لهم، فصرف لهم القول فلم يجدهم يجيبون الى الوصية، فقال : عليكم بباب العرب وحجرهم ولسنا من رجاله، فأروه أنكم تزرعون ولا تزرعوا العام شيئا، حتى تنكسر مصر فنشكوه الى عثمان فيعزله عنكم، ونسأل من هو أضعف منه، ونخلوا بما نريد، نظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ــ وكان أسرعهم لذلك محمد بن أبي حذيفة ــ وفعلوا ما أمرهم به، وخرجوا شاكين الى عثمان عمرا، ومستعفينه منهم، ومطالبين بابن أبي سرح مكانه، فأقره على الخراج، وترك عمرا على الصلاة، فمشى بينهما سودان، وكنانة، وخارجه، وأغروا بينهما، حتى كتب كل واحد منهما ما بلغه الى عثمان، فجمع مصر كلها لابن أبي سرح.[3]

هكذا كان دور ابن سبأ في مصر أما أثره في غير مصر من أقاليم الخلافة...

ففي الشام لم يستطع على شيء مما أراد، وأخرجه أهلها منه[4] ولذلك لم يكن من بين المحاصرين جماعة تدعى بأهل الشام ــ فيما أعلم ــ.

---

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق ص ١٢٤/أ

(٢) يؤكد هذا : الحوار الذي جرى بينه وبين « عمرو بن العاص » بعد أن قدم عليه المدينة، قال عثمان : ما شأنك يا أبا عبد الله ؟ قال : والله يا أمير المؤمنين ما كنت منذ وليتهم أجمع أمرا ولا رأيا مني منذ كرهوني وما أدري من أين أتيت ؟ فقال عثمان : ولكن أدري، لقد دنا أمر هو الذي كنت أحذره، ولقد جاءني نفر من ركب تردد عنهم عمر وكرهم ألا وانه لابد لما هو كائن أن يكون... (تاريخ دمشق ص ١٢٤/أ) وهذه الرواية ــ التي يشكل الحوار جزءا منها ــ تطلعنا على حقيقة المؤامرة، كما تبين عن طبيعة العلاقة واسلوب المعاملة بني الصحابة وهو أمر تشتط الروايات الأخرى في تأويله !!

(٣) تاريخ الاسلام ج ٢/١٢٣

(٤) الطبري ج ٤/٣٤٠

أما البصرة فقد نزلها ابن سبأ، وعرض لأهلها ولم يصرح لهم فقبلوا منه، واستعظموه[1].

وكاد الأمر يستفحل فيها، الا أن واليها ـــ الفطن ـــ عبد الله بن عامر تنبه له، فأخرجه بعد أن سأله : ما أنت ؟ فأخبره أنه رجل من أهل الكتاب رغب في الاسلام، وفي جواره، فرد عليه : ما يبلغني ذلك، أخرج عني[2] وكذلك الكوفة فقد أخرج منها، فقصد مصر[3].

لكن اخراج ابن سبأ من البصرة والكوفة، لم يكن ليمنع من تأثيره فيهما، واستدامة العلاقة مع عناصر الفتنة فيهما، ولذلك كانت المكاتبات جارية بين ابن سبأ، وبين أهل البصرة والكوفة، وكانت الرجال تختلف بينهم[4].

وأدت هذه المكاتبات ادوارها، فكان من بين الركب المحاصر لعثمان ركبا البصرة والكوفة (كما سيأتي بيانه ـــ ان شاء الله).

* * *

وأخيرا نقف على نقطة نحسب أنها ضرورية فيما نحن بصدده، بل هي من مكملات الموضوع ولوازمه... هذه النقطة هي الكشف الحقيقي عن حجم دور ابن سبأ في الفتنة زمن عثمان، ويقابلنا في المسألة رأيان :

أولهما يستهجن دور ابن سبأ، ويشكك فيما نسبه المؤرخون اليه من أخبار، وانها الى الخرافة أقرب منها إلى الحقيقة[5]، ثم كان هذا عاملا من عوامل التشكيك في أصل وجوده أو درجة في سلم الانكار (وقد سبق البيان).

---

(١) المصدر نفسه ج ٣٢٦/٤

(٢) المرجع نفسه ج ٣٢٧/٤.

(٣) المصدر نفسه ج ٣٢٧/٤

(٤) الطبري ج ٣٢٩/٤، ابن الأثير (الكامل) ج ١٤٥/٣

(٥) أمثال طه حسين : علي وبنوه ص ٤٩، محمد عماره : الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية ص ١٥٤

أما أصحاب الرأي الآخر، فيرون أن لو كان ابن سبأ وحده لكان كافيا لتهييج الفتنة[1]، وربما زاد بعضهم فجعل من آثاره تحريك بعض الصحابة وضرب بعضهم ببعض ![2].

واذا كنا نرفض الرأى الأول، معتمدين على بيان دوره من خلال دراسة الروايات الصحيحة، والجمع بينها ثم بيان دلالاتها، فنحن أيضا نأخذ على أصحاب الرأى الثاني مغالاتهم في تضخيم دور ابن سبأ ونقف من ذلك موقفا وسطا، مؤكدين ما لابن سبأ من دور في أحداث الفتنة، ولكن كعامل من عواملها، ــ قد يكون أبرزها وأخطرها ــ ولكن المهم أن هناك أجواء للفتنة مهدت له، وعوامل أخرى ساندته... وتأكيد هذا بالاشارة الى بعض عوامل الفتنة، التي نستوحيها من اشارات السلف، ونضيف اليها بعضا من آراء الخلف. ومن هذه العوامل :

١ ــ مجيء عثمان رضي الله عنه مباشرة بعد عمر رضي الله عنه واختلاف الطبع بينهما، مما أدى الى تغير اسلوبهما في معاملة الرعية، فعلى حين كان عمر رضي الله عنه قوى الشكيمة، شديد المحاسبة لنفسه، ولمن تحت يده، كان عثمان رضي الله عنه ألين طبعا وأرق في المعاملة، ولم يكن يأخذ نفسه أو يأخذ الناس بما أخذهم به عمر، فعظم صغير عثمان في أعينهم[3] ويقول عثمان نفسه : « ان عمر رضي الله عنه أتعب والله من اتبع اثره »[4] حتى وان كان الناس رغبوا فيه في الشطر الأول من خلافته لأنه لان معهم، وكان عمر شديدا عليهم، فقد أنكروا عليه بعد ذلك[5] وقد قال عثمان لأقوام سجنهم : « أتدرون ما جرأكم عليَّ ؟ ما جرأكم عليّ إلا حلمي » ؟[6]

---

(١) سعيد الأفغاني : عائشة والسياسة ص ٥٩

(٢) محمود قاسم : دراسات في الفلسفة الاسلامية ص ١٠٩

(٣) حتى قيل : ما قتل عثمان غير عمر (الجاحظ. العثمانية ص ١٨٤) وهذه العبارة وإن كان فيها مبالغة فهي ذات دلالة معينة.

(٤) الطبري ج ٤/٤٠١

(٥) ابن حجر الهيتمي : الصواعق المحرقة ص ١١٣، ١١٤

(٦) الطبري ج ٤/٢٥١

٢ ــ واذا كان الشهرستاني يحمل بني أمية مسؤولية ما وقع من أحداث في أواخر عهد عثمان[١]، فابن تيمية[٢]، وابن حجر[٣] يشيرون الى مروان بن الحكم كعامل من عوامل النقمة على عثمان.

٣ ــ ومن عوامل الفتنة سماح عثمان رضي الله عنه لكبار الصحابة بالانتشار في البلاد المفتوحة، وكان عمر قد حجر عليهم قبله، وقد انقطع الى المسلمين من ليس له طول ولا مزية في الاسلام فكان ذلك أول وهن دخل على الاسلام، وأول فتنة كانت في العامة ليس الا ذلك »[٤].

٤ ــ ويذهب ابن تيمية الى أن من عوامل الفتنة اختلاف الناس في أواخر خلافة عثمان، وخلافة علي عنهم في زمن أبي بكر وعمر، ولذلك لقرب عهد هؤلاء بالرسالة، وعظيم ايمانهم وصلاحهم، وكون أئمتهم أقوم بالواجب، وأثبت في الطمأنينة[٥].

٥ ــ وشكلت طوائف من المرتدين عنصرا ساهم في تهيئة أجواء الفتنة، والمرتدون كانوا على عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ولكن الشيء الجديد هو اختلاف سياسة عثمان رضي الله عنه عن الخليفتين قبله، تجاههم فأبو بكر رضي الله عنه يكتب الى عمال الردة : « ألا يستعينوا بمرتد في جهاد عدو »[٦].

ويؤكد على خالد بن الوليد، وعياض بن غنم ألا يغزوا معهم أحد قد ارتد حتى يرى رأيه فيهم، فلم تشهد أيامه مرتداً[٧].

---

(١) الملل والنحل ج ٢٤/١

(٢) مناهج السنة ج ١٩٠/٣

(٣) الاصابة ج ٤٧٨/٣

(٤) الطبري ج ٣٩٧/٤، ويقول ابن كثير : كان عمر يحجر على كبار الصحابة، يقول لهم : إني أخاف أن تروا الدنيا، وأن يراكم بناؤها، فلما خرجوا في زمان عثمان اجتمع عليهم الناس، وصار لكل واحد اصحاب، وطمع كل قوم في تولية صاحبهم الامارة بعد عثمان، فاستعجلوا موته، واستطالوا حياته، حتى وقع ما وقع في بعض الأمصار (البداية والنهاية ج ٢٣٨/٧)

(٥) الفتاوي ج ١٤٨/٢٨

(٦) الطبري ج ٣٤١/٣

(٧) المصدر نفسه ج ٣٤٧/٣

ويقول الشعبي : « كان أبو بكر لا يستعين في حروبه بأحد من أهل الردة حتى مات »[1].

ولذلك كان بعض من ارتد، وحسن اسلامهم بعد ذلك، يستحيون من مواجهة أبي بكر، فطليحة بن خويلد ـــ مثلا ـــ يذهب إلى مكة معتمرا، وما استطاع مقابلة أبي بكر حتى مات[2].

ويكتب الصديق رضي الله عنه الى خالد ـــ وطليحة يشهد القتال معه ـــ : ان استشره في الحرب، ولا تؤمره[3].

وفي خلافة عمر رضي الله عنه تخف هذه السياسة نوعا، تجاه المرتدين، فيندب عمر أهل الردة ليرمي بهم الشام والعراق...[4].

ويكون في الامداد لجيش اليرموك قيس بن هبيرة[5] وهو فيمن ارتد.

بل يكون في ميسرة جيش سعد في القادسية قيس بن مكشوح المرادي وعمرو ابن معدى كرب كان يحمس الناس ويحرك مشاعرهم[6] ، وهذا كله انما كان بعد أن أذن عمر لأهل الردة في الغزو[7].

ولكن هذا التجاوز عن سياسة أبي بكر، عند عمر يصحبه نوع من الحذر والحيطة، ولا ينفك عن الضوابط والشروط المقيدة...

فأهل الردة لا يولون على مائة، ولهذا اضطر سعد أن يبعث قيس بن المكشوح في سبعين رجلا فقط، في أثر الأعاجم الذين ثاروا بهم ليلة الهرير[8].

---

(١) المصدر نفسه ج ٤/٢٥
(٢) البداية والنهاية ج ٦/٣٥٩
(٣) المصدر نفسه ج ٦/٣٥٩
(٤) الطبري ج ٣/٤٤٨
(٥) الطبري ج ٣/٤٤٨
(٦) المصدر نفسه ج ٣/٥٧٥، ٥٧٦
(٧) المصدر نفسه ج ٣/٤٤٨
(٨) المصدر نفسه ج ٣/٥٥٨

ثم ان عمر ما كان يستعمل المرتدين الا بعد ألّا يجد في الصحابة من يجزئه في حربه، وبعد أن يتعذر عليه سواهم من التابعين لهم باحسان[1].

واذا استعمل هؤلاء المرتدين فلم يكن يطمعهم في الرئاسة[2]، ولذلك كان رؤساء أهل الردة في تلك الحروب (حشوة)[*] الى أن ضرب الاسلام بجرانه كما يقول الشعبي[3].

ويأتي عثمان رضي الله عنه فيتجاوز سياسة التقييد التي فرضها الخليفتان قبله، تجاه المرتدين ويرتئي أن عامل الزمن ــ الذي مضى على عهد الردة ــ كاف لان يتخلص من كان قد ارتد من رواسبها، ويجتهد عثمان فيستعمل أهل الردة استصلاحا لهم، فلم يصلحهم ذلك، بل زادهم فسادا وجعل قائلهم يتمثل قول القائل :

وكنت وعمرا كالمسمن كلبه فخدشه أنيابه وأظافره[4]

وكان من نتائج استعمال عثمان لأهل الردة في الكوفة، أن تبدل أهلها وأصيب قائدهم عبد الرحمن بن ربيعة في غزوه للترك، وهو الذي كان يقاتلهم في عهد عمر فيفرقون منه ويقولون : ما اجترأ علينا هذا الرجل إلا ومعه الملائكة تمنعه من الموت[5] !.

بل تظهر الآثار بشكل واضح في الفتنة التي انتهت بقتل عثمان، وذلك حينما نجد في أسماء المتهمين في دم عثمان رجالا ينتسبون الى قبائل كانت في عداد المرتدين أمثال : سودان بن حمران السكوني وقتيرة بن فلان السكوني، وحكيم بن جبلة العبدى[6].

---

(١) المصدر نفسه ج ٤/٢٥

(٢) المصدر نفسه ج ٤/٢٥

( ) حشوه : بالكسر، البطن (مختار الصحاح ص ١٣٨)

(٣) الطبري ج ٤/٢٥

(٤) الطبري ج ٤/١٥٨

(٥) المصدر نفسه ج ٤/١٥٨

(٦) المصدر نفسه ج ٤/٣٤٨، أشار الطبري الى أن قوما من « السكون » قد تحولوا الى المرتدين بعد أن كانوا مع جيش المسلمين بقيادة « زياد بن لبيد » (ج ٣/٣٣٤)، هذا فوق ان من قبائل مراد (وفي هؤلاء من ينتمي إليهم) من قد ارتد مع أهل اليمن (البداية والنهاية ج ٦/٣٧٣) أمثال قيس بن المكشوح المرادي، وعمرو بن معدي كرب. أما « حكيم بن جبلة » فهو من بني عبد القيس، وأصابهم من عمان، وكانت في أهل عمان ردة أيضا (الطبري ج ٣/٣١٤)

٦ ــ ووسط هذه الأجواء كانت الخيرات وافرة، وفي الدنيا متسع على المسلمين، لا سيما وقد تفرغ الناس، بعد أن فتحوا الأقاليم، واطمأنوا، فأخذوا ينقمون على خليفتهم[١].

ومن هنا نعلم أثر الرخاء في تحريك الفتنة، وخاصة حينما تواكبه أجواء معينة.

ومن هنا ــ أيضا ــ نفهم مقالة عثمان رضي الله عنه لعبد الرحمن بن ربيعة وهو على الباب[٢] : « ان الرعية قد أبطر كثيرا منهم البطنة، فقصّر بهم ولا تقتحم بالمسلمين، فاني خاش أن يبتلوا »[٣].

ويقول عباد بن حنيف : « ان أول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا »[٤].

٧ ــ ومن المحدثين من يشير الى تنوع عوامل الفتنة، بين قديم يصعد الى جاهلية الآباء والأجداد وحديث هيأته الدوافع القائمة بين الأقران والأنداد، وما كان منتزعا من حوافز البيئة، ومسوقا بسوط العصبية الموروثة، زيادة على ما كان مصبوغا بصبغة الدين والحمية[٥].

ويجمل أحدهم عوامل الفتنة، في العصبية القبلية الاقليمية، والعوامل الاقتصادية الاجتماعية والأمور الدينية الاجتهادية ![٦].

---

(١) الذهبي : دول الاسلام ج ١/١٢.

(٢) الباب : يطلق عليه باب الابواء، مدينة على بحر طبرستان، وأحد الثغور الجليلة العظيمة، لكثرة اعدائه من أمم شتى وكانت الأكاسرة كثيرة الاهتمام بهذا الثغر لا يفترون عن النظر في مصالحه، لعظيم خطره، وشدة خطره، فتح في عهد عمر بن الخطاب سنة ١٩ هـ، وكان عبد الرحمن بن ربيعه في مقدمة الجيش الفاتح له (معجم البلدان ج ١/٣٠٣ــ٣٠٥)

(٣) الطبري ج ٤/٣٠٤

(٤) المصدر نفسه ج ٤/٣٩٨

(٥) صادق عرجون : عثمان... الخليفة المفترى عليه ــ ص ١٩

(٦) نايف محمد معروف : الخوارج في العصر الأموي ص ٤١، كذلك أشار الى بعض هذه العوامل، أبو زهرة (تاريخ المذاهب الاسلامية ج ١/٢٨ــ٣١، وعبد الباسط أفندي (تحفة الأنام.. ص ٤٥، ٤٦) وغيرهم.

« تصاعد الفتنة ومقتل الخليفة »

مما سبق يتبين أن بوادر الخلاف التي نجمت، ومجمل عوامل الفتنة التي نشأت، كانت بمثابة فتيل، جاء ابن سبأ، وأعوانه ليشعلوه، ودخلت سنة ٣٤هـ، وهي السنة التي تكاتب فيها المنحرفون عن عثمان لمناظرته[١].

وتكاثفت الأحداث، فالكوفة تخلو من الرؤساء، الا منزوعاً أو مفتوناً، ويخرج فيها « يزيد ابن قيس »، فيدخل المسجد مناديا بخلع عثمان ؟، ويثوب إليه أصحابه ـــ ممن كان ابن السوداء يكاتبهم ـ وينكر العارفون من أهل الكوفة عليهم، ويحدد « القعقاع » تحجيم فتنتهم : هيهات لا والله لا تسكن الغوغاء الا المشرفيه[٢].

وفي مصر ـ وربما غيرها ـ تزور الكتب على ألسنة الصحابة بقتل عثمان[٣].

وسارت الفتن في أقاليم الخلافة سريان النار في الهشيم، وكتب عثمان (رضي الله عنه) الى أهل الأمصار، فهزت كلماته مشاعرهم، وربما أبكت الكثير منهم، وأدرك الناس أن الأمة تتمخض بشر[٤] واستلزم هذا خطوة أخرى يقوم بها عثمان، فأرسل الى عماله أن يوافوه في الموسم، فحضر اليه معاوية بن أبي سفيان، وسعيد بن العاص وعمرو بن العاص وعبد الله ابن عامر، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وأخبرهم بما صنع الناس، وما شكوا به اليه، وطلب منهم ـــ وهم وزراؤه ونصحاؤه ـــ أن يجتهدوا في آرائهم ويشيروا عليه، فكان رأي ابن عامر :

أن يأمر الناس بالجهاد، ويجمهرهم في المغازي حتى لا يتعدى همّ أحدهم قمل فروه، ودبرة دابته، وأشار عليه « معاوية » بأن يرد عماله على الكفاية لما قبلهم، والرجلان أعلم بناحيتيهما، أما « سعيد بن العاص » فكان رأيه أن يقتل قادة هؤلاء فيتفرق أذنابهم، فالأمر يصنع بسر، ولا ذنب للعامة الذين يتحدثون بما يسربه اليهم، واشار عليه « ابن أبي سرح » أن يلجمهم بالمال ليعطف عليهم، فهم أهل طمع، وجاء دور « عمرو بن العاص » فقال له :

---

(١) الطبري ج ٤/٣٣٠

(٢) المصدر نفسه ج ٤/٣٣١ـــ٣٣٢

(٣) البداية والنهاية ج ٧/١٩٢ نقل ابن جرير ـــ عليه رحمة الله ـــ من طريق محمد بن اسحاق عن عمه : أن الصحابة كتبوا الى الآفاق من المدينة يأمرون الناس بالقدوم على عثمان ليقاتلوه (ج ٤/٣٦٧)، ولكن قال ابن كثير : ان هذا كذب على الصحابة (ج ٧/١٩٢)

(٤) الطبري ج ٤/٣٤٢

انك قد ركبت الناس ما يكرهون فاعتزم أن تعتدل، والا فاعتزل، وظن عثمان أن هذا هو الجد منه، حتى اذا تفرق القوم عنه أشار عليه عمرو أن هذا ليس هو رأيه[1] وانما أراد أن يبلغ القوم قوله فيثقوا به فيقود اليه خيرا، أو يصرف عنه شرا، وذلك لظنه أن الخبر سيبلغهم[2].

وأحاط الثوار بالمدينة ـ للمرة الأولى ـ مظهرين الأمر بالمعروف، وهم يريدون أن يذكروا لعثمان أمورا قد زرعوها في قلوب الناس، حتى يرجعوا اليهم فيقولوا لهم، انا قررناه بها فلم يعزل عنها !! وقد تلطف معهم عثمان فأجاب على تساؤلاتهم، وقد أدرك المسلمون أنهم أصحاب شر، فأشاروا على الخليفة بقتلهم، وأبى عثمان الا تركهم، فانصرفوا، وقد تواعدوا المجيء في شهر شوال من السنة نفسها (٣٥هـ) حتى يغزوه وكأنهم حجاج[3].

فلما كان في الموعد المحدد، خرج الثوار قاصدين المدينة ـــ وبيان ذلك بما يلي :

جاء في رواية أبي سعيد (مولى أبي اسيد الأنصاري) أن عثمان سمع أن وفد مصر قد أقبلوا فاستقبلهم فقالوا : ادع بالمصحف، فدعا به، وقالوا افتح السابعة[4] (يعنون يونس)، فلما قرأ « قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون.. » أوقفوه، وقالوا : أرأيت ما حمى من الحمى آلله أذن لك أم على الله تفتري ؟ ثم ذكروا له أشياء أخرى، وكلما ذكروا له شيئا قال : امضه نزلت في كذا.. فيدفعهم إلى المعنى المقصود منها، ثم انهم خرجوا راضين وكتبوا عليه شرطاً وأخذ عليهم ميثاقا ألا يشقوا ولا يفارقوا جماعة ما أقام لهم شرطهم، ورجعوا راضين[5] فبينما هم في الطريق اذا براكب يتعرض لهم ويفارقهم، ثم يرجع اليهم ثم يفارقهم، قالوا مالك ؟ قال : أنا رسول أمير المؤمنين الى عامله بمصر، ففتشوه فاذا هم بكتاب من عثمان وعليه خاتمه، وفيه الأمر بصلبهم أو قتلهم، أو قطع أيديهم وأرجلهم، وأقبلوا نحو المدينة، فأتوا « عليا » فقالوا : ألم تر الى عدو الله كتب فينا بكذا وكذا ؟ وأن الله قد أحل دمه، فقم معنا اليه، قال : والله لا أقوم معكم قالوا : فلم كتبت الينا ؟! قال : والله ما كتبت اليكم كتابا، فنظر بعضهم

---

(١) فقد جاء في رواية أخرى أنه قال : « أرى أنك قد لنت لهم، وتراخيت عنهم، وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشتد في موضع الشدة، وتلين في موضع اللين..» (الطبري ج ٣٤٢/٤، ٣٤٣)

(٢) الطبري ج ٣٣٣/٤، ٣٣٤، ٣٤٢، ابن الاثير : الكامل ج ١٥٥/٣

(٣) الطبري ج ٣٤٦/٤ـــ٣٤٨، الكامل، لابن الأثير ١٥٨/٣.

(٤) في الطبري : التاسعة

(٥) وفي الطبري زيادة مهمة ومنها « فقام فخطب فقال، إني ما رأيت والله وفدا في الأرض هم خير لحوماتي من هذا الوفد الذين قدموا علي وقد قال مرة أخرى : خشيت من هذا الوفد من أهل مصر !! »

الى بعض[1]، وخرج علي من المدينة فانطلقوا الى عثمان فقالوا : كتبت فينا بكذا وكذا، فقال : انهما اثنتان أن تقيموا رجلين من المسلمين أو يميني بالله الذي لا إله الا هو ما كتبت ولا أمليت ولا علمت، وقد يكتب الكتاب على لسان الرجل وينقش الخاتم على الخاتم، قالوا : قد أحل الله دمك، ونقضت العهد والميثاق، وحصروه في القصر رضي الله عنه[2].

هذه الرواية من أصح الروايات في حصار عثمان، فهي ذات سند قوي (كما تقدم)، وراويها (أبو سعيد) شاهد عيان للحادثة، والذي نقلها عنه (أبو نضره) وكان يعرف من حضر الحادثة، واجتمع بهم أمثال علي وطلحة[3] وسنضيف الى هذه الرواية أخبارا تكملها، من روايات لا تصطدم معها بشيء بل تسير معها في اتجاه واحد حتى تنتهي الى قتل عثمان، ومن أبرز هذه الروايات رواية سيف بن عمر التميمي ومما جاء فيها..

أنه في شوال سنة ٣٤هـ خرج أهل مصر في أربع فرق، على أربعة أمراء، المقلل يقول ستمائة، والمكثر يقول ألف، ومن زعمائهم : ابن عديس البلوي، وكنانة بن بشر التجيبي، وعروة ابن شيم الليثي، وأبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي وسودان بن رومان الأصبحي، وزرع ابن يشكر اليافعي، وسودان بن حمران، وقتيرة بن فلان السكونيين، وعلى الجميع الغافقي بن حرب العكي، ومعهم عبد الله بن سبأ، وخرجوا للحرب، متظاهرين أمام الناس أنهم خرجوا للحج، وهواهم في علي[4] .

وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق، وعليهم زيا. بن صوحان العبدي، والأشتر النخعي، وزياد بن النضر الحارثي، وعبد الله بن الأصم، وعددهم كعدد أهل مصر[5]، وعليهم جميعا عمرو بن الأصم، ونزل ناس منهم « الأعوص » وكان هواهم مع الزبير[6] .

---

(١) بعد ذلك ــ كما في الطبري ــ قال بعضهم : أهذا تقاتلون، أو لهذا تغضبون ؟ (ج ٤/٣٥٥).

(٢) خليفة بن خياط ص ١٦٨، ١٦٩، الطبري ج ٤/٣٥٤ــ٣٥٦، وهذه رواية خليفة.

(٣) انظر تاريخ الاسلام للذهبي ج ٤/٢٢٥

(٤) الطبري ج ٤/٣٤٨

(٥) في الطبقات ان عددهم ٢٠٠ (ج ٣/٧١)

(٦) الطبري ج ٤/٣٤٩.

أما أهل البصرة فقد خرجوا في أربع رفاق ـ أيضا ـ وعليهم حكيم بن جبلة، وذريح ابن عباد العبدي، وبشر بن شريح الحطم بن ضبيعة القيسي، وابن المحرش ابن عبد بن عمرو الحنفي في عدد كأهل مصر[1] وأميرهم جميعا « حرقوص بن زهير السعدي »، فنزل ناس منهم « ذا خشب » وكان هوى البصريين مع طلحة[2].

واتفق أمرهم على أن يبعثوا اثنين منهم ليطلعوا على أخبار المدينة ويعرفوا أحوال أهلها، خاصة وقد نمي خبر بأن أهل المدينة استباحوا دماءهم وعسكروا للقائهم وذهب الرجلان فدخلا المدينة، ولقيا أزواج النبي ﷺ، وعليا، وطلحة، والزبير، وأظهروا لهم أنهم يستعفون من عثمان بعض عماله، ويطلبون منهم السماح للناس بالدخول، فكلهم أبى عليهم ذلك، وقالوا : بيض ما يفرخنّ[3] .

ونتيجة هذا الفشل احتاج الأمر الى اسلوب آخر فكان ان اتفق نفر من أهل مصر فأتوا « عليا » ومن أهل البصرة فأتوا « طلحة »، ومن أهل الكوفة نفر وأتوا « الزبير » فكلموهم وعرضوا عليهم، لكنهم ردوهم على أعقابهم وهم يقولون : « لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة، وذي خشب ملعونون على لسان محمد ﷺ، فارجعوا لاصحبكم الله »[4].

بعد هذا تظاهر القوم بالرجوع، وهم يبطنون أمرا لا يعلمه الناس وكان أمر الكتاب... ولنتوقف عند قضية الكتاب، من كتبه ؟ وتحت أي ظروف كتب ؟.

وأول ما يستوقفنا من أمر الكتاب حامله، وهو يتعرض لهم ويفارقهم، ثم يرجع اليهم، ثم يفارقهم ![5]، بل جاء أنه كان يتبينهم [6].

---

(١) وفي طبقات ابن سعد أن عددهم ١٠٠ (ج ٣/٧١)

(٢) الطبري ج ٤/٣٤٩، وعند الذهبي العكس، فأهل الكوفة كانوا يشتهون طلحة، وأهل البصرة هواهم مع الزبير (تاريخ الاسلام ج ٢/١٢٦.

(٣) الطبري ج ٤/٣٤٩، ٣٥٠.

(٤) المصدر نفسه ج ٤/٣٥٠.

(٥) خليفة بن خياط ص ١٤٦

(٦) الطبري ج ٤/٣٥٥

ويستوقفنا ـ ثانيا ـ اجابته لهم بأنه رسول أمير المؤمنين الى عامله بمصر[1] والوفد لا يزال لتوه خرج من عند عثمان، فماذا يريد من عامله بمصر ؟؟.

ويستوقفنا ـ أيضا ـ سؤال علي رضي الله عنه لوفد الكوفة والبصرة ـ وقد كانوا يقولون انما جئنا لننصر اخواننا ونمنعهم ـ فقال لهم علي : وكيف علمتم ياأهل الكوفة، وياأهل البصرة بما لقي أهل مصر، وقد سرتم مراحل، ثم طويتم نحونا ؟[2].

ولعلنا من خلال هذه الملاحظات الداخلية في النص نتعرف على مَن كتب الكتاب ؟ ولعله أدرك عين الصواب من قال : ان الكتاب لا يعدو أن يكون مسرحيّة مثلت في الطريق الغربي الذي كان المصريون فيه وحدهم [3] .

هذا فوق أن هناك ما يؤكد شبهة تزوير هذا الكتاب، اذ ليس هو الكتاب الوحيد الذي يزور على الصحابة، فعائشة (رضي الله عنها) تتهم بأنها كتبت الى الناس تأمرهم بالخروج على عثمان !!، ثم تنفي وتقول : « لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت لهم سوداء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا »[4].

وعلي (رضي الله عنه) يتهمه الثوار بأنه كتب اليهم أن يقدموا عليه المدينة فينكر ذلك عليهم ويقسم « والله ما كتبت اليكم كتابا »[5].

ويُتهم الصحابة بكتابة الكتب الى أهل الأمصار، يأمرونهم بالقدوم اليهم، فدين محمد قد فسد وترك، والجهاد في المدينة خير من الرباط في الثغور البعيدة ؟![6].

ولعله، مما يندرج تحت هذه الكتب المزوّرة، ما أشار اليه « ابن قتيبة » في غريبه[7].

وفوق هذا أن عليا يقول : « هذا ـــ والله ـــ أمر أبرم في المدينة »[8].

---

(١) خليفة بن خياط ص ١٤٦، الطبري ج ٣٥٥/٤

(٢) الطبري ج ٣٥١/٤

(٣) محب الدين الخطيب : عثمان بن عفان ص ٣١

(٤) البداية والنهاية ج ٢١٤/٧

(٥) خليفة بن خياط ص ١٤٦.

(٦) الطبري ج ٣٦٧/٤، الباقلاني : التمهيد ص ٢١٦

(٧) غريب الحديث (الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ، وزارة أوقاف العراق) ج ٦٤/٢

(٨) الطبري ج ٣٥١/٤

وعثمان يشير الى أن الكتاب، مكتوب على لسانه، والخاتم قد ينقش على خاتمه[1]، فيصدقه الصادقون، ويكذبه الكاذبون[2].

وفوق هذا كله، فالأمر ماض، والثوار يفصحون عن هدفهم ويقولون : ضعوه على ما شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزلنا، ونحن نعتزله[3].

ويحيط الثوار بالمدينة، وعثمان (رضي الله عنه) غير مكترث بهم، بل كانوا في عينه أدق من التراب[4].

ويمضي أسبوع على نزولهم بمسجد رسول الله ﷺ، ويزداد تصاعد الأحداث، ويبدأ اللغط يرتفع في جوانب المسجد، ويتطور الى مناوشات، ثم الى حصب الخليفة (عثمان وهو على المنبر، فيصرع، ويحمل ثم يعود، ويصلي بهم عشرين يوما)[5].

ويحكم الثوار الحصار، وتعيش مدينة الرسول ﷺ أياما عصيبة، ويبقى الصحابة (رضي الله عنهم) في حيرة من أمر هؤلاء، والناس بمجملهم لا يدرون ما القوم صانعون، ولا على ما هم عازمون[6].

ويحاولون عثمان على أن يعزل نفسه، فيمتنع مشيرا الى أن الرسول ﷺ أوصاه بعدم طاعة المنافقين ![7].

ثم يبعث عثمان الى أهل الأمصار ـــ يستنجدهم، ويعرفهم ما الناس فيه ـــ فيتجهزون، ويخرجون على الصعب والذلول، من مصر، والشام، والكوفة والبصرة..[8].

---

(١) خليفة بن خياط ص ١٤٦
(٢) البداية والنهاية ج ١٩١/٧
(٣) الطبري ج ٣٥١/٤، ابن كثير ج ١٩١/٧
(٤) الطبري ج ٣٥١/٤
(٥) المصدر نفسه ج ٣٥١/٤.
(٦) البداية والنهاية ج ١٩١/٧
(٧) ابن سعد، الطبقات ج ٦٦/٣
(٨) الطبري ج ٣٥١/٤، ٣٥٢، ابن الاثير الكامل ج ١٦٠/٣

ويتناهى الخبر الى المحاصرين فيخشون فوات الفرصة، ويحكمون حصارهم على المدينة، فتضيق بهم طرقاتها ويبلغ الزحام شدته في موضع الحصار، حتى لو ألقي حجر لم يقع الا على رأس رجل، كما يقول ذلك من حضر الدار[1].

ويتسابق الصحابة ـ بعد أن أحاط الثوار بداره، وحاولوا عزله، بل منعه مما به اليه حاجة ـ في الدفاع عنه، ويستعينون بأبنائهم في الوقوف معه، فاذا هو يستقبلهم ويقسم عليهم، أن يكفوا أيديهم، فيسكنوا[2] حتى أن بعضهم لبس الدرع مرتين[3]. وحتى أن الأنصار ليسألونه ان يكونوا أنصار الله مرتين !!، فيأمرهم بالكف ويقول : لا حاجة لي في ذلك[4].

ويستمر الحصار (من أواخر القعدة ـــ إلى الثامن عشر من ذي الحجة)[5].

وقبل ذلك بيوم يرى عثمان في المنام اقتراب اجله، فيستسلم لامر الله ويأمر من كان عنده في الدار ـ وكانوا قرابة سبعمائة ـ من المهاجرين والأنصار أن يكفوا أيديهم، ويذهبوا الى منازلهم، كما قال لرقيقه : من أغمد سيفه فهو حر ![6].

ويتسور الثوار عليه داره، وتتوزع رماحهم دماءه الطاهرة، وهو الشيخ المعلق قلبه بالله، والمحتضر وبين يديه كتاب الله !!!

وهنا تختلف الروايات في تعيين قاتله، هل كان « رومان اليماني »[7] أو « سودان ابن رومان المرادي »[8]، أو « كنانة بن بشر التجيبي »[9]، أو رجل من بني سدوس يقال له « الموت الأسود »[10]، أو أنه لم يتعين قاتله على الصحيح[11].

---

(١) البداية والنهاية ج ١٩٥/٧

(٢) المصدر نفسه ج ١٩٣/٧

(٣) أمثال ابن عمر. انظر خليفة بن خياط ص ١٧٣

(٤) المصدر نفسه ص ١٧٣.

(٥) البداية والنهاية ج ١٩٩/٧

(٦) المصدر نفسه ج ١٩٩/٧

(٧) خليفة بن خياط، ص ١٧٥

(٨) البداية والنهاية ج ٢٠٣/٧، وفي الطبري سودان بن حمران المرادي (ج ٣٩٤/٤)

(٩) الطبري ج ٣٩٤/٤

(١٠) خليفة بن خياط ص ١٧٤

(١١) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٤٠/١

والذي يهمنا أن نتعرف على هويّة قاتليه، فهم « رؤوس شر وأهل جفاء » كما يقول الذهبي[1].

وأراذل من أوباش القبائل، كما يقول ابن العماد الحنبلي[2] وهمج ورعاع من غوغاء القبائل وسفلة الأطراف والأرذل كما يصفهم النووي[3] .

أو حثالة الناس، ومتفقون على الشر كما يصفهم ابن سعد[4].

وهم خليط بين غوغاء الأمصار، وأهل المياه، وعبيد أهل المدينة، كما تقول عائشة رضي الله عنها[5].

ويقول الزبير (رضي الله عنه) : قتله الغوغاء من الأمصار، ونزاع القبائل، وظاهرهم الأعراب والعبيد[6].

ولعنه بعد هذا لا يبقى مكان للروايات التي تشرك الصحابة في دم عثمان ــ وقد سبق طرف منها ــ، ولا لبعض الاخبار التي تقول أنه جد في أمر عثمان طلحة والزبير ![7] .

كيف وقد سئل الحسن، أكان فيمن قتل عثمان أحد من المهاجرين والأنصار ؟

قال : لا، كانوا أعلاجا من أهل مصر[8].

واذا كان لقائل أن يقول : وكيف قتل عثمان، وفي المدينة جمع من كبار الصحابة ؟!

وهو سؤال وضعه ابن كثير (وفيما أمضينا بعض الاجابة عليه) ثم أجاب عليه بعدة أمور نقتطف منها الآتي :

١ ــ أن كثيرا منهم، بل أكثرهم، أو كلهم لم يعلموا أن الأمر سيبلغ قتله.

٢ ــ أن الصحابة مانعوا عنه أشد الممانعة، فلما كان التضييق عزم عليهم بوضع أسلحتهم، والخروج الى منازلهم.

---

(١) دول الاسلام ج ١/١٢

(٢) شذرات الذهب ج ١/٤٠

(٣) شرح صحيح مسلم ج ١٥/١٤٨، ١٤٩

(٤) الطبقات ٣/٧١

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٣/٢٠٧

(٦) الطبري ج ٤/٤٦١ ــ عن يزيد بن معن السّلمي

(٧) نصر بن مزاحم : وقعة صفين ص ٧٢

(٨) خليفة بن خياط ص ١٧٦

٣ ــ أن الثوار اغتنموا فرصة غياب كثير من أهل المدينة في الحج، وعجلوا عثمان قبل قدوم أهل الأمصار عليه.

٤ ــ وكان المحاصرون قريبا من ألفي مقاتل من الشجعان، وأهل المدينة كلهم ربما لا يبلغون هذا الرقم لتوزعهم في الثغور والأقاليم[١].

وبالجملة فهي فتنة قدرها الله، وبوحي منه أخبر عنها رسول الله ﷺ، وهو يبشر عثمان بالجنة مع بلوى نصيبه[٢].

ولقد كان عمر رضي الله عنه، سبب انتشارها عنهم، كما يقول ابن كثير[٣].

أما وقد كسر الباب، واستشهد عمر، فما بقي الا أن يصدق خبر المصطفى ﷺ، في الفتنة التي تموج كموج البحر..[٤] ويبتلي بالفتنة عثمان فيصبر لها ويحتسب اجرها منذ علم خبرها وهو يقول : اللهم صبرا، أو الله المستعان[٥]، ثم يصبر عليها وقت هيجانها ويقول : والله ان رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان ــ ان مات ولم يحركها..[٦].

رضي الله عن عثمان الشهيد المبتلى، ورضي الله عن بقية الصحابة أولي الأحلام والنهى....

بعد هذا كله، علنا أن نكون قد عرفنا ملابسات الفتنة التي انتهت بمقتل عثمان، فقد ابتدأت بمآخذ كانت تكمن خلفها بواعث الفتنة، ثم تبلورت على شكل بوادر خلاف شملت معظم أقطار الخلافة، ثم كان لابن سبأ دور في استغلال أجواء الفتنة، وأخيرا تصاعدت الأحداث، وأقبل الثوار ــ وفيهم ابن سبأ ومن كان يكاتبه ــ، وانتهى الأمر باستشهاد الخليفة ! فلله الأمر من قبل ومن بعد !!.

---

(١) البداية والنهاية ج ٢١٦/٧

(٢) صحيح البخاري ج ٩٧/٨

(٣) النهاية أو الفتن والملاحم (دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط الأولى) ج ٥٠/١

(٤) صحيح البخاري ج ٩٦/٧، وقد جاء في الحديث أن عمر سأل عن الفتنة التي تموج كموج البحر.

(٥) صحيح مسلم (شرح النووي ج ١٧٠/١٥ــ١٧١)

(٦) الطبري ج ٣٤٣/٤.

الفصـــل الخـــامس

السبئيـــة طائفة واعتقادا

* نشأة السبئيـــة
* عقيـدة السبئيـــة
* نماذج من السبئية ومكائدهم للمسلمين

نشـأة السبئيـة :

ذكر البغدادي (٤٢٩هـ) أن فرقة « السبئية » أظهروا بدعتهم في زمان علي رضي الله عنه[١] ويقول الأسفراييني (٤٧١هـ) أن ابن سبأ قال بنبوة علي في أول أمره، ثم دعا الى الوهيته، ودعا الخلق الى ذلك، فأجابته جماعة الى ذلك في وقت علي.[٢]

ونجد عند « ابن عساكر » تأكيدا على وجود هذه الفرقة أيام علي رضي الله عنه، فقد ذكر أن عليا حينما أمر بقتل ابن سبأ ـ لاعتقاده الألوهية فيه ـ ثم نزع عن ذلك ونفاه الى المدائن لمشورة بعض من كان عنده، قامت إليه طائفة السبئية معتقدين ألوهيته ـــ وكانوا أحد عشر رجلا فأمرهم بالرجوع عن ذلك فلم يرجعوا فأمر باحراقهم بالنار[٣].

ولم تكن هذه فقط هي طائفة السبئية، ويكشف لنا بقية النص أن بعضا من هؤلاء السبئية « ممن لم يكشف رأسه منهم علينا » كما يقول ابن عساكر، قالوا في علي أنه اله[٤].

وبهذا الرأي ـ نشأة السبئية في عهد علي ـ قال الهيتمي : « .. ثم اتسع الأمر أيضا في خلافة علي، فظهر في عهده فرقة السبئية »[٥].

ويرى المستشرق « فلهوزن » أن نشأة السبئية ترجع الى زمان علي والحسن[٦] مشيرا الى ما كتبه المستشرق «Hodgson » وهو يعلق على بعض النصوص الواردة في أنساب الأشراف[٧].

وهناك رأي آخر يشير الى نشأة السبئية بعد أيام علي رضي الله عنه، نستوحي ذلك من خلال حديث « الشهرستاني » (٥٤٨هـ) عن بعض معتقدات ابن سبأ، والتي أعقبها بالقول : « .. وانما أظهر ابن سبأ هذه المقالة بعد انتقال علي رضي الله عنه (الى

---

(١) الفرق بين الفرق، ص ١٥

(٢) التبصر في الدين، ص ١٠٨

(٣) تاريخ مدينة دمشق (مخطوط) ورقة ١٢٥/أ

(٤) المصدر نفسه ١٢٥/أ

(٥) الصواعق المحرقة ص ٦

(٦) الخوارج والشيعة ص ١٧٠ (طبعة الكويت ١٩٧٦).

(٧) ZDMG سنة ١٨٨٤ م، مجلد ٣٨ ص ٣٩١.

رحمة الله) واجتمعت عليه جماعة »[1].

وفي شرح نهج البلاغة : « فلما قتل أمير المؤمنين عليه السلام اظهر (ابن سبأ) مقالته، وصارت له طائفة وفرقة يصدقونه ويتبعونه.. »[2].

أما الرأي الثالث فيشير الى نشأة مبكرة للسبئية تتصل بأيام عثمان رضي الله عنه في الخلافة فالدكتور « محمود نايف » بعد أن تحدث عن اجواء الفتنة في عهد عثمان، وأجمل العوامل المؤدية الى الثورة عليه قال : « في هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الاسلام، وفي هذه الأجواء المثيرة، تبرز السبئية لتلعب أخطر دور لها في تاريخ صدر الاسلام.. »[3].

وهذا الرأي قال به ـ قبل ذلك ـ الدكتور جواد علي، فالسبئية في نظره هي المسئولة عن قتل الخليفة عثمان[4].

ويؤكد ذلك بصراحة فيقول : «والظاهر أن السبئية كانت من أكثر الكتل السياسية التي ظهرت في أيام عثمان نظاما.. »[5].

وأتوقف هنا قليلا ـ قبل أن أميل الى أي من هذه الآراء المحددة لنشأة السبئية لمعرفة هذه التسمية « السبئية » وهل هناك من تسمية غيرها ؟ ولعل في هذا ما يساعد على الكشف والايضاح (عن نشأتها).

والبحث في أصل هذا المدلول يطلعنا على الحقائق الآتية :

اللفظة الغالبة هي السبائية أو السبئية[6] (بالمد والقصر) وهي تعني نسبة هذه الطائفة

---

(١) الملل والنحل ج ١/١٥٥، ١٥٦

(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٢/٩٩

(٣) الخوارج في العصر الأموي، ص ٤١

(٤) مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد السادس، ص ١٠٠

(٥) المرجع نفسه ص ٨٤.

(٦) وإلى هذه مال صاحب القاموس المحيط فقال في مادة : « سبأ » « ..ووالد عبد الله المنسوب إليه السبئية من الغلاة.. » (الفيروز أبادي : القاموس المحيط، المكتبة التجارية الكبرى / مصر ج ١/١٧

الى عبد الله بن سبأ، ففي المحبّر : « عبد الله بن سبأ صاحب السبائية »[1] ويقول ابن قتيبة « السبائية من الرافضة ينسبون الى عبد الله بن سبأ »[2]، وفي مفاتيح العلوم : السبائية أصحاب عبد الله بن سبأ[3]، وفي تاريخ ابن عساكر، عبد الله هو رأس الطائفة السبئية[4]. وعند الصفدي : عبد الله بن سبأ هو رأس الطائفة السبئية[5]. ومثل هذا جاء في مواعظ المقريزي[6]، وتعريفات الجرجاني[7].

وفي كتب الفرق لا تكاد تقف على طائفة السبئية الا وهي منسوبة الى عبدالله ابن سبأ، ونماذج ذلك كثير[8].

ولم يكن هذا محل اتفاق عند أهل السنة وحدهم، بل أكد علماء الشيعة على هذا في كتبهم، فالناشيء الأكبر ـ وهو من اوائل من كتب في المقالات والفرق من الشيعة ت ٢٩٣ هـ ـ يقول : « وفرقة زعموا أن عليا عليه السلام حي لم يمت، وأنه لا يموت حتى يسوق العرب بعصاه، وهؤلاء هم السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ.. »[9].

ويقول القمي (٣٠١ هـ) : وهذه الفرقة تسمى السبائية أصحاب عبد الله بن سبأ.[10]

---

(١) ابن حبيب، المحبّر ص ٣٠٨

(٢) المعارف، ص ٢٦٧، المحققة ص ٦٢١

(٣) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ٢٢

(٤) تاريخ مدينة دمشق ص ١٢٣ / ب

(٥) الوافي بالوفيات (مخطوط) ج ٢٠/١٧

(٦) المواعظ والاعتبار ج ٣٥٣/٢

(٧) لتعريفات ص ٧٩

(٨) انظر : الرازي، الزينة في الكلمات الاسلامية ٣٠٥، أبو الحسن الأشعري، مقالات الاسلاميين ج ٨٦/١، الملطي التنبيه والرد ص ١٨ ابن حزم : الفصل.. ج ١٨٠/٤، الاسفراييني : التبصر في الدين : ص ١٠٨، الشهرستاني : الملل والنحل : ج ١٥٥/١، الرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٥٧، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان (دار التراث العربي الأولى ١٤٠٠) للسكسكي، ص ٥٠.

(٩) مسائل الامامة ومقتطفات من الكتاب الأوسط في المقالات ص ٢٢

(١٠) المقالات والفرق ص ٢٠

ولم يكن هذا رأي متقدمي الشيعة فقط، وانما قال به بعض المتأخرين منهم، حتى قال أحدهم : « الغلاة أصناف منهم السبئية أتباع عبد الله بن سبأ »[1].

وحتى الذين اطلقوا على « السبئية » تسمية أخرى يرجعون نسبتها الى عبد الله بن سبأ « فالطيارة » التي وصفهم بها « ابن طاهر المقدسي » قدم لها بالقول « وأما السبئية فانهم يقال لهم الطيارة لزعمهم أنهم لا يموتون، وأن موتهم طيران نفوسهم في الغلس » ثم ذكر عبد الله بن سبأ كزعيم لهذه الطائفة[2].

ونجد تأكيد هذه النسبة « السبئية » الى « عبد الله بن سبأ » في كتب الأنساب أيضا[3].

والذي نستفيده من هذا كله ارتباط هذه الطائفة (السبئية) بعبد الله بن سبأ، ارتباط يكاد يكون محل اجماع كتب المعارف العامة، واصحاب المقالات، وكتب الانساب...

ولهذا فاني أرجح الرأي القائل بنشوء طائفة السبئية قبل خلافة علي رضي الله عنه وبالتحديد في الفترة الأخيرة من خلافة عثمان رضي الله عنه، وأؤكد هذا بالأدلة التالية :

١ ــ ما سبق تقريره من ظهور ابن سبأ زمن عثمان بن عفان ــ في الفصل الثالث ــ ولئن صحّ القول بظهوره وحده في البداية فلا يلزم من ذلك بقاؤه طيلة أيام عثمان دون التفاف أنصار حوله، بل اجتمع اليه من ذوي النفوس الضعيفة، وأصحاب الأهواء، ومن لم يكن لهم في الإسلام طول عهد ولا مزيه، وتكونت منهم بذور طائفة اطلق عليها فيما بعد (السبئية).

وفي تلك الفترة (الأيام الأخيرة لخلافة عثمان) تطالعنا الكثير من النصوص وهي تشير الى

---

(١) محمد جواد مغنية. مع الشيعة الامامية ص ٤٠.

(٢) البدء والتاريخ ج ١٢٩/١٥

(٣) انظر : ابن الأثير، اللباب ج ٥٢٧/١، السيوطي : كب الألباب في تحرير الأنساب ج ١٣٢/١، السمعاني، الأنساب ج ٢٤/٧.

صنائع ابن سبأ وهم أقوام يقولون ما يعتقده، ويسيرون خلفه، ولن تكون الغالبية[1] من هؤلاء سوى طائفة السبئية. ففي الطبري ـ ضمن أحداث سنة ٣٥هـ ـ يبدو عبد الله بن سبأ كزعيم لطائفة يبث دعاته لنشر مذهبهم، ويكاتب أهل الأمصار فتستجيب له طوائف منهم ويكاتبوه، وتحاط دعوتهم بالسرية والكتمان، متسترين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويعيبون ولاتهم، ويتكاتبون فيما بينهم..[2] فهل يستطيع أحد أن يسفه عقله ويقول : ان ابن سبأ كان يقوم بهذه الأشياء وحده ؟!

بل نجد قبل ذلك، وفي أحداث سنة ٣٣هـ أن ابن سبأ حينما نزل البصرة على « حكيم ابن جبله » اجتمع اليه نفر فطرح لهم بعضا من آرائه ولم يصرّح فقبلوا منه واستعظموه..[3] وحينما طرد من البصرة قصد الكوفة فطرد منها، فاستقر بمصر فجعل يكاتب صنائعه ويكاتبوه وتختلف الرجال بينهم[4].

ويقول ابن كثير : ان ابن سبأ افتتن به بشر كثير من أهل مصر، وكتبوا الى جماعات من عوام أهل الكوفة والبصرة، فتمالؤوا على ذلك وتكاتبوا فيه، وتواعدوا أن يجتمعوا في الانكار على عثمان..[5]

ويقول السيوطي : فافتتن به بشر كثير من أهل مصر، وكان ذلك مبدأ تألبهم على عثمان[6].

٢ ـ ويتضح هذا أكثر حينما نتبين نصوصا أخرى تؤكد قتل عثمان على يد جماعة اتفقوا على الشر كما يقول ابن سعد[7] أوهم رؤوس شر وأهل جفاء، كما نعتهم الذهبي[8]. ووصفهم غيره بأنهم أراذل من أوباش القبائل[9].

---

(١) وأبدى هذا التحفظ حتى يخرج من هذا التعميم من شاركهم في آرائهم وهو لا يعلم أهدافهم ونياتهم، ظانا أنهم دعاة اصلاح !

(٢) تاريخ الطبري ج ٤/٣٤١.

(٣) الطبري ج ٤/٣٢٦

(٤) المصدر نفسه ج ٤/٣٢٧

(٥) البداية والنهاية ج ٧/١٨٣

(٦) حسن المحاضرة ج ٢/١٦٥

(٧) الطبقات الكبرى ج ٣/٧١

(٨) دول الاسلام ج ١/١٢

(٩) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ١/٤٠

والمتأمل في تلك الفترة لا يرى جماعة يمكن أن ينسب اليها هذا العمل أقرب من طائفة السبئية ووجود ابن سبأ ـ مع ماله من أثر في تلك الفترة ـ يعزز هذا الرأي.

وفوق هذا كله فقد حفظ لنا الطبري من رواية سيف بن عمر عن شيوخه نصا يكشف فيه عن وجود هذا الطائفة في أواخر خلافة عثمان مبينا دورهم في الأحداث المؤدية الى قتل الخليفة فيقول : « .. ولما رجع الأمراء لم يكن للسبئية سبيل الى الخروج الى الأمصار، وكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون، وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف ويسألون عثمان عن أشياء لتطير في الناس، ولتحقّق عليه، فتوافوا بالمدينة.. الخ »[1].

٣ ـ بالرجوع الى تاريخ الطبري وابن الأثير نجد أن أول ذكر للسبئية عند الطبري في الحصار الذي ضرب على المدينة، ثم انتهى بقتل الخليفة عثمان ـ كما تقدم ـ وهذا يعني ظهور السبئية في تلك الفترة المتقدمة على خلافة علي، أما ابن الأثير فهو وان جاء على ذكر السبئية ـ صراحة ـ في بداية أيام علي بن أبي طالب، وذلك في معرض تحذير السبئية لعلي بعد فراغه من خطبة خطبها بعدما استخلف[2] الا أنه أشار ـ تلميحا ـ الى السبئية قبل ذلك، وذلك حينما عدّ « عمير بن ضابىء » ضمْن طائفة السبئية « .. فلذلك صار ابنه عمير سبئيا »، في الوقت الذي قال عنه أنه كان ممن سار الى المدينة لقتل عثمان[3].

ويكشف لنا صاحب التمهيد والبيان عن هذه النسبة (كون عمير بن ضابىء سبئيا، فيقول : « والسبئية قوم يسبون عثمان رضي الله عنه وينسبون إلى عبد الله بن سبأ.. »[4] .

على أن الذي أحب أن يفهمه القارىء هنا أن الحديث منصب على جذور النشأة لدى فرقة السبأية، ولذلك حاولت تحديد أول تاريخ لنشأتها، وهذا لا يمنع القول بأن هذه الطائفة انما اتضحت أفكارها، وباتت كفرقة تواجه الناس بمعتقداتها أيام علي رضي الله عنه وبعد مماته ولم يعد الأمر مجرد آراء لابن سبأ يعلنها، ثم يلتف حوله جماعة يقولون بقوله، حتى وان كانت هذه الجماعة هي التي ظهرت للناس فيما بعد مشكلة طائفة السبئية.

---

(١) الطبري ج ٣٤٦/٤ ـ عن سيف بن عمر

(٢) بن الأثير ج ١٩٥/٣

(٣) المصدر نفسه ج ١٨٣/٣

(٤) المالقي، التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان ص ٦٧.

ففي عهد علي (رضي الله عنه) جاءت السبئية اليه وقالوا له : أنت أنت !! قال : ومن أنا ؟ قالوا : الخالق البارئ، فاستتابهم فلم يرجعوا، فأوقد لهم نارا عظيمة وأحرقهم وقال مرتجزا

لما رأيت الأمـر أمـرا منكـرا أججت ناري ودعـوت قنبرا[1]

وبعد موت علي قيل لابنه الحسن : ان ناسا من شيعة أبي الحسن (علي) يزعمون أنه دابة الأرض، وأنه سيبعث قبل يوم القيامة، فقال : كذبوا، ليس أولئك شيعته أولئك اعداؤه، لو علمنا ذلك ما قسمنا ميراثه ولا أنكحنا نساءه[2].

عقيـدة السبئيـة :

من أوائل النصوص التي أبانت عن عقيدة السبئية رسالة الارجاء[3] تلك التي كتبها الحسن بن محمد بن الحنفية (بين ٩٥، ١٠٠ هـ) لكي تقرأ على الناس، ومما جاء فيها :

« ومن خصومة هذه السبئية التي أدركنا، اذ يقولوا هدينا لوحي ضل عنه الناس وعلم خفي، ويزعمون أن نبي الله كتم تسعة أعشار القرآن، ولو كان نبي الله كاتما شيئا مما أنزل الله لكتم شأن امرأة زيد اذ تقول للذي أنعم الله عليه الآية[4]، وقوله : لم تحرم ما أحل الله لك

---

(١) الملطي : التنبيه والرد ص ١٨، الشهرستاني : الملل والنحل ج ١/١٥٥، وانظر مناقشة هذه القضية (احراق السبئية) في الصفحات القادمة.

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٣/٣٩.

(٣) خلافا لرأي الدكتور « عبد الرحمن بدوي » الذي قال : ان ما أورده سعد القمي (٣٠١ هـ) في المقالات والفرق هو أقدم خبر عن السبئية. (انظر : مذاهب الاسلاميين ج ٢/٣٩) ورسالة الارجاء هذه ضمّنها العدني في كتابه : الايمان ــ كما سيأتي ــ وقد حفظ لنا « الذهبي » بعضا من هذه الرسالة، وقال عن سبب كتابة الحسن لها : « ..وذلك أن الخوارج تولت الشيخين، وبرئت من عثمان وعلي، فعارضتهم السبائية، فبرئت من أبي بكر وعمر وعثمان وتولت عليا، فأفرطت فيه، وقالت المرجئة الأولى نتولى الشيخين، ونرجئ عثمان وعلي فلا نتولاهما ولا نتبرأ منهما.. » (تاريخ الاسلام ج ٣/٣٥٨). كما تعرض للرسالة « ابن حجر »، وأشار الى مكان وجودها فقال : « قلت المراد بالارجاء الذي تكلم الحسن بن محمد فيه غير الارجاء الذي يعيبه أهل السنة، المتعلق بالايمان وذلك أني وقفت على كتاب الحسن بن محمد المذكور أخرجه ابن عمر العدني في كتاب الايمان.. »
(تهذيب التهذيب ج ٢/٣٢١)
وقد ذكر فؤاد سزكين هذه الرسالة في كتابه (تاريخ التراث العربي ج ٢/٣٥٨).

(٤) الأحزاب، آية ٣٧

الآية[1]، وقوله : لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا[2].. »[3].

ومن هذه النصوص القديمة عن السبئية، ما يروى عن قتادة (١١٨ هـ)[4] أنه كان اذا قرأ هذه الآية « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة.. »[5].

قال : « ان لم يكونوا الحرورية والسبائية فلا أدري منهم.. »[6].

وكان يقول : « .. والله ان اليهودية لبدعة، وان النصرانية لبدعة، وان الحرورية لبدعة، وان السبائية لبدعة، ما نزل بهن كتاب ولا سنّهن نبي »[7].

ومن النصوص أيضا قول الجوزجاني[8] : « .. ثم السبئية اذ غلت في الكفر، فزعمت أن عليا إلهها، حتى حرقهم بالنار انكارا عليهم واستبصارا في أمرهم حين يقول :

لما رأيت الأمـــر أمـــرا منكـــرا أجـــجت نارى ودعـــــوت قنبرا[9]

ونحن هنا ـ وأمام هذه النصوص ـ نتبين طرفا من عقيدة السبئية، ومن خلال النص الأول تتضح لنا عقيدتهم في « القرآن الكريم » فهم يزعمون أن نبي الله كتم عن الأمة تسعة أعشار القرآن، وهم بعد هذا يهتدون لوحي ضل عنه الناس، وعلم خفي !!، كما أنهم يرومون

---

(١) التحريم، آية ١

(٢) الاسراء، آية ٧٤

(٣) انظر : كتاب الايمان (مخطوط) ورقة ٢٤٩ : ب ـ لمحمد بن يحيى بن أبي عمر المكي العدني، عالم بالحديث، وسمع منه الامام مسلم بن الحجاج، تولى قضاء عدن، وجاور بمكة، صنف المسند في الحديث، مات سنة ٢٤٣ (ابن حجر : تقريب التهذيب ج ٢١٨/٢، الزركلي : الاعلام ج ٣/٨)

(٤) هو قتادة ابن دعامه بن قتادة بن عزيز السدوسي، أبو الخطاب البصري، مفسر، حافظ، يقال أنه ولد ضرير، أكمه، وهو مع علمه بالتفسير كان عالما بالعربية ومفرداتها، وأيام العرب قال عنه الذهبي : حافظ مفسر، وقال ابن حجر : ثقة ثبت، اختلف في سنة وفاته، فقيل توفي سنة ١١٨ هـ، وقيل سنة ١١٧ (الذهبي : الكاشف ج ٣٩٦/٢ ابن حجر : التقريب ١٢٣/٢، الزركلي : الاعلام ٢٧/٦)

(٥) آل عمران، آية ٧

(٦) الطبري : جامع البيان عن تأويل القرآن (دار المعارف بمصر ج ١٨٧/٦.

(٧) المصدر نفسه ج ١٨٩/٦

(٨) هو ابراهيم بن يعقوب، أبو اسحاق السعدي، الدمشقي، محدث الشام، وأحد الثقات الحفاظ، نسبته الى « جوزجان » في خراسان مات بدمشق سنة ٢٥٩، وقيل قبل ذلك سنة ٢٥٦ هـ، وله مصنفات منها : كتاب في الجرح والتعديل، والمتجرم وفيه علوم غزيرة وفوائد كثيرة ـ كما قال الحافظ ابن كثير.. (ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣٦/١١، الزركلي : الاعلام ج ٧٦/١، كحالة، معجم المؤلفين ج ١٢١/١)

(٩) الجوزجاني : الضعفاء (مخطوط) ورقة ٣ : ب

اتباع المتشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وهذه المقالة التي اعتقدتها السبئية، ترجع أصولها الى زعيمهم « عبد الله بن سبأ » الذي زعم أن القرآن جزء من تسعة اجزاء وعلمه عند علي، فضربه علي ونفاه بعد ما كان هم به[1].

وفي النص الآخر نقف على معتقد آخر من معتقدات السبئية ـ لا يقل خطرا عن سابقه ـ وذلك باعتقاد السبئية ألوهية علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالغين في ذلك منتهى الغلو والتطرف، ومنتهين الى حد أودى بعلي الى احراق بعضهم..

وهذه العقيدة عند السبئية تؤكدها أغلب المصادر الموجودة بين أيدينا أمثال : ابن قتيبة[2] وأبي الحسن الأشعري[3]، والأسفراييني[4]، والبغدادي[5] والملطى[6] والشهرستاني[7]، وابن عساكر[8]، وابن حجر[9] ، والكشي[10]، والرازي[11]، والمامقاني[12] .. ونحوهم.

ومن هنا يكون رأي « عبد الرحمن بدوي » بأن القول بألوهية علي المنسوبة الى ابن سبأ، والسبئية من بعده انما هو تزيد من البغدادي ـ صاحب الفرق بين الفرق ـ وأن ذلك لم يرد الا في كلامه هو[13] وقوله ـ البدوي ـ « يغلب على الظن أن السبئية لم يقولوا بألوهية علي ابن أبي طالب، وانما قالت بهذا أصناف عديدة من غلاة الشيعة.. »[14] بعيد كل البعد عن الصواب

---

(١) الجوزاني، الضعفاء ق ٣/ب
(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٧٣، المعارف ص ٦٢١
(٣) مقالات الاسلاميين ج ٨٦/١
(٤) التبصر في الدين ص ١٠٨
(٥) الفرق بين الفرق ص ٢١، ٢٣٣
(٦) التنبيه والرد ص ١١٨
(٧) الملل والنحل ج ١٥٥/١
(٨) تاريخ مدينة دمشق ق ١٢٥/أ
(٩) لسان الميزان ج ٢٩٠/٣
(١٠) رجال الكشي ص ٩٩، ١٠٠، معرفة أخبار الرجال ص ٧٠
(١١) الزينة في الكلمات الاسلامية ص ٣٠٥
(١٢) تنقيح المقال ج ١٨٣/٢
(١٣) مذاهب الاسلاميين ج ٤٣/٢
(١٤) المرجع نفسه ج ٤٥/٢

وهو مدين بتلك النصوص التي تؤكد ما قاله البغدادي، لاسيما وأن جزءا منها سابق للبغدادي[1] امثال ابن قتيبة، والجوزجاني، وابو الحسن الأشعري والطبري.. وغيرها.

وتأتي عقيدتا « الوصية » و « الرجعة » في مقدمة العقائد التي قال بها عبد الله بن سبأ وأصبحت بعد ذلك ضمن عقيدة السبئية.

والرجعة يفسرها لنا الأشعري باجمال فيقول : والسبئية يقولون بالرجعة وأن الأموات يرجعون الى الدنيا..[2].

ويوضحها « ابن سبأ » بقوله : « لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمدا يرجع، وقد قال الله عز وجل : « ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد »[3] فمحمد أحق بالرجوع من عيسى قال فقبل ذلك عنه، ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها »[3].

ونجد في « عقد الجمان » أن ابن سبأ دخل مصر وطاف في كورها، وأظهر الأمر بالمعروف، وتكلم في الرجعة، وقررها في قلوب المصريين[4].. » والسبئية يعتقدون برجعة علي الى الدنيا قبل يوم القيامة، وأنه سينزل الى الأرض فيملأها عدلا كما ملئت جورا..[5].

وفي « البرهان » كان ابن سبأ وفرقته يقولون بالرجعة الى الدنيا بعد الموت، وهو أول من قال بذلك[6].

ومن مقتضيات عقيدة الرجعة عندهم القول بأن عليا حي لم يمت، والسبئية يعتقدون هذا، ويقولون بأن عليا لم يقتل ولم يمت، ولا يموت حتى يملك الأرض ويسوق العرب بعصاه[7].

---

(١) على أن البدوي رجع قليلا حينما قال : « إلا إذا أولنا ما أورده يعني البغدادي من قول عبد الله بن سبأ لعلي : أنت أنت بمعنى أنت الإله » ٢/٤٣.

(٢) مقالات الاسلاميين ج ١/٨٦

(٣) الطبري ج ٤/٣٤٠ (٥) والآية من سورة القصص، آية ٨٥

(٤) العيني : عقد الجمان ج ٩ / القسم الأول ص ١٦٨.

(٥) مقالات الاسلاميين ج ١/٨٦

(٦) السكسكي : البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ص ٥٠

(٧) القمي : المقالات والفرق ص ١٩.

وحينما بلغهم خبر موته قالوا للذي نعاه اليهم : كذبت يا عدو الله، لو جئتنا بدماغه في صرّة، وأقمت على مقتله سبعين عدلا ما صدقناك، ولا يموت حتى يسوق العرب بعصاه ويملك الأرض.[1]

واذا كان ابن سبأ يعلن أن المقتول لم يكن عليا، وانما كان شيطانا تصور للناس في صورة علي، وقال كما كذبت اليهود والنصارى في دعواها قتل عيسى، كذبت النواصب والخوارج في دعواها قتل علي. [2].

اذا كانت تلك مقالة ابن سبأ، فان أحد السبئية (رشيد الهجري)[3] يدخل على علي بعد موته وهو مسجى فيسلم، ويقول لاصحابه : انه ليفهم الكلام ويرد السلام ويتنفس نفس الحي، ويعرق تحت الدثار الوثير، وإنه الإمام الذي يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما.[4]

ويقول القمي بعد أن ساق قريبا من هذا الكلام : « فهذا مذهب السبائية ومذهب الحربية وهم أصحاب عبد الله بن عمر الحرب الكندي في علي عليه السلام »[5].

والسبئية يعللون اختفاء علي « بالغيبة » ولذلك قالوا بغيبته بعد موته[6] ومن هنا كانوا يعتقدون أن الرعد صوته، وأن البرق سوطه، وأنه في السحاب واذا نشأت سحابة بيضاء صافية منيرة مبرقة قاموا اليها يبتهلون ويتضرعون ويقولون : قد مرّ عليّ بنا في السحاب..[7].

واذا سمعوا صوت الرعد قالوا : وعليك السلام ياأمير المؤمنين !، وفيهم قال الشاعر :

برئت من الخوارج لست منهم ... من الغـــزّال منهم وابـــن باب
ومـــن قوم اذا ذكـــروا عليـــا ... يردون السلام على السحـــاب[8]

---

(١) المقالات والفرق ص ٢١، الفرق بين الفرق ص ٢٢٤.
(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٢٣، ٢٢٤
(٣) سيأتي التعريف برشيد في « نماذج من السبئية » من هذا الفصل
(٤) الشيء الأكبر. مسائل الامامة ص ٢٣
(٥) المقالات والفرق ص ٢١.
(٦) الفرق الاسلامية / ذيل كتاب شرح المواقف للكرماني ص ٣٤
(٧) الملطي : التنبيه والرد ص ١٨
(٨) البغدادي الفرق بين الفرق ص ٢٣٤

جاء في مسائل الامامة أن السبئية تزعم أن الله عز وجل رفع عليا اليه، كما رفع المسيح، قالوا : انما رفعه لغضبه على أهل الأرض اذ خالفوه ولم يطيعوا أمره ![1].

أما « الوصية » فقد وضعها ابن سبأ للسبئية حينما قال : « إنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي، وكان علي وصي محمد، ثم قال : محمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء، ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصي رسول لله ﷺ.. »[2].

وكان ابن سبأ يقول وهو في يهوديته في « يوشع بن نون » بعد موسى، مثل ما قال في علي بعد رسول الله ﷺ[3].

وينشأ عن القول بالوصية القول بفرض امامة الموصى له، واذا كانت السبئية تقول بالوصية وأن عليا هو خاتم الأوصياء، فصاحب السبئية (ابن سبأ) هو أول من شهد بالقول بفرض امامة علي كما يقول القمي[4].

وأول من أظهر القول بالنص بامامة علي كما يقول الشهرستاني[5].

كما أن السبئية هي أول فرقة قالت في الإسلام بالوقف بعد النبي ﷺ من هذه الأمة[6] وهم يسمون انتظار ظهور الامام بالتوقف[7].

السبئية وعقيدة ختم النبوة :

يقول الملطي : « والصنف الذي يقال لهم السبائية يزعمون أن عليا شريك النبي ﷺ في النبوة وأن النبي مقدم عليه اذا كان حيا، فلما مات ورث النبوة، فكان نبيا يوحى اليه، ويأتيه جبريل ـ عليه السلام ـ بالرسالة.. »[8].

---

(١) الناشيء الأكبر، مسائل الامامة ص ٢٣

(٢) الطبري ج ٤/٣٤٠

(٣) الزينة في الكلمات الاسلامية ٣٠٥، المقالات والفرق ٢٠، الملل والنحل ج ١/١٥٥.

(٤) المقالات والفرق ص ٢٠، وانظر أيضا : الزينة في الكلمات الاسلامية ص ٣٠٥.

(٥) الملل والنحل ج ١/١٥٥

(٦) المقالات والفرق ص ٢٠

(٧) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٨٠

(٨) التنبيه والرد ص ١٥٨

ونقل البغدادي عن ابن سبأ زعمه أن عليا كان نبيا[1].

وفي تنقيح المقال : ان ابن سبأ كان يزعم ان عليا اله وانه نبي..[2].

ولعلنا من خلال ذلك نتبين أن الذين قالوا بجواز النبوة بعد النبي ﷺ هم السبئية، وانهم هم الذين انتقلوا بعد ذلك الى القول بألوهية علي، وأنه لم يكن هناك قسمان من الغلاة أوجبت أحدهما النبوة بعد النبي ﷺ لغيره، وقالت الأخرى بالألوهية لغير الله عن وجل، كما ذكر ذلك ابن حزم...[3].

سب الصحابة :

ذكر القمي، والنوبختي : أن عبد الله بن سبأ كان أول من أظهر الطعن في أبي بكر وعمر وعثمان، والصحابة وتبرأ منهم[4].

وتدين السبئية من بعده بهذه العقيدة، ففي « الطبقات » أن رجلا كان يأتي ابراهيم النخعي فيتعلم منه، فيسمع قوما يذكرون أمر علي وعثمان فقال : أنا أتعلم من هذا الرجل وأرى الناس مختلفين في أمر علي وعثمان فسأل ابراهيم النخعي عن ذلك فقال : ما أنا بسبأي ولا مرجئ[5].

وفي نص آخر أن رجلا قال لابراهيم : علي أحبّ اليّ من أبي بكر وعمر فقال له ابراهيم، أما أن عليا لو سمع كلامك لأوجع ظهرك، اذا كنتم تجالسوننا بهذا فلا تجالسونا[6].

وجاء في أنساب الأشراف أن رجالا ـ فيهم ابن سبأ ـ أتوا عليا يسألونه عن أبي بكر وعمر ! فقال : أو قد تفرغتم لهذا..؟[7].

---

(١) الفرق بين الفرق : ص ٢٣٣

(٢) المامقاني ـ تنقيح المقال ج ١٨٣/٢

(٣) الفصل في الملل والنحل ج ١٨٣/٤

(٤) المقالات والفرق : ص ٢٠، فرق الشيعة ص ٤٤

(٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١٩٢/٦

(٦) المصدر نفسه ج ١٩٢/٦.

(٧) البلاذري، أنساب الاشراف ص ٣٨٢

وذكر ابن حجر أن سويد بن غفلة [1] دخل على علي في امارته فقال : اني مررت بنفر يذكرون أبا بكر وعمر، يرون أنك تضمر لهما مثل ذلك، منهم عبد الله بن سبأ ـ وهو أول من أظهر ذلك ـ فقال علي : مالي ولهذا الخبيث الأسود، ثم قال، معاذ الله أن اضمر لهما الا الحسن الجميل، ثم أرسل الى ابن سبأ فسيره الى المدائن، ونهض الى المنبر حتى اذا اجتمع الناس اثنى عليهما خيرا، ثم قال : ألا ولا يبلغني عن أحد يفضلني عليهما الا جلدته حد المفترى.. [2].

ويقول ابن تيمية : انه روى عن علي بأسانيد جيدة أنه قال : لا أوتي بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر الا جلدته حد المفتري، وقد طلب ابن سبأ لما بلغه عنه ذلك ليقتله فهرب منه [3].

وفي الصواعق المحرقة : ان السبئية كانوا يسبون أصحاب رسول الله ﷺ الا قليلا وينسبونهم الى الكفر والنفاق ويتبرأون منهم، ولذا سموا أيضا « بالتبرئية » [4].

ويقول صاحب حركات الشيعة المتطرفين : « لا شك أن هذا الذي لقنه ابن سبأ وأوحى به كان تطورا خطيرا في النظر الى السابقين الأولين، وهم الصحابة جلة المسلمين، وأن تجريحهم انما كان تشجيعا وحضا على تمزيق لباس الهيبة والجلال الذي أضفاه عليهم تاريخهم في الإسلام، كان فتحا للطريق وتمهيدا لمن لم يتمكن الإسلام في قلبه ليمرق منه، وذلك ما نلحظه في هذه الطائفة التي اتبعت تعاليمه ونسبت اليه وسميت « السبئية ».. » [5].

---

(١) هو سعيد بن بخفلة الجعفي، من مذحج، ولد عام الفيل، وقدم المدينة حين دفنوا رسول الله ﷺ، وهو من كبار التابعين نزل الكوفة قال عنه الذهب : ثقة إمام زاهد قوام، توفي سنة ٨١ هـ أو قبلها بسنة (الكاشف ج ٤١٢/١، تقريب التهذيب ج ٣٤١/١)

(٢) لسان الميزان ج ٢٩٠/٣

(٣) الفتاوي ج ٤٧٥/٢٨

(٤) ابن حجر الهيتمي : الصواعق المحرقة ص ٦

(٥) انظر : محمد جابر عبد العال : حركات الشيعة المتطرفين... (مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٣ هـ) ص ٢٢

الحلـول والتناســخ :

جاء في فرق البغدادي « أما السبئية فانما دخلت في جملة الحلولية لقولها بأن عليا صار إلهاً بحلول روح الاله فيه »[1].

ولما قتل علي ـ رضي الله عنه ـ زعم عبد الله بن سبأ أنه لم يمت، وأن فيه الجزء الالهي.[2] كما كان يزعم أن روح الله حل فيه[3].

أما طائفة السبئية فقد كان فيهم من يزعم أن روح القدس كانت في النبي ﷺ، كما كانت في عيسى، ثم انتقلت الى علي ثم الحسن ثم الى الحسين، ثم كذلك في الأئمة[4].

يقول أبو زهرة : من السبئية من كان يقول : ان الاله حل في علي، ومنهم من يقول : ان الاله قد تجسد فيه[5].

وقال غيره : ان السبئية كانت تقول بحلول جزء الهي في علي، وأنه اتحد بجسده، وبه يعلم الغيب[6].

وإذا كانت عقيدة الحلول قال بها بعض السبئية، فقد قال بالتناسخ عامة السبئية [7]

والتناسخ ـ عندهم ـ يعني تناسخ الجزء الالهي في الأئمة بعد علي رضي الله عنه، كما حكاه الشهرستاني [8] أو هو انتقال هذا الجزء الالهي بنوع من التناسخ من امام الى امام كما ذكره محمد جواد مغنيه[9].

ومن عقائد السبئية « البداء » والسبئية يقولون بذلك، زاعمين أن الله تبدو له « البداوات » أو كلام قريب من هذا استعظمه صاحب « التنبه والرد » وقال ان هذا كلام لا استجيز شرحه في كتاب، ولا أقدم النطق به[10].

(١) الفرق بين الفرق (ط بيروت ١٩٧٧ ص ٢٤١.
(٢) الفرق الاسلامية، ذيل كتاب شرح المواقف ص ٣٤
(٣) البشبيشي : الفرق الاسلامية ص ٢٧
(٤) مطهر بن طاهر المقدسي : البدء والتاريخ ج ١٢٩/٥
(٥) المذاهب الاسلامية ص ٦٥
(٦) محمد جواد مغنية : مع الشيعة الامامية ص ٣٩، ٤٠
(٧) ابن طاهر المقدسي : البدء والتاريخ ج ١٢٩/٥
(٨) الملل والنحل ج ١٥٥/١، ١٥٦
(٩) مع الشيعة الامامية ص ٤٠
(١٠) الملطي، التنبيه والرد ص ١٩

تلك هي أبرز المعتقدات التي جاء بها « عبد الله بن سبأ »، وقالت بها « السبئية » ذكرتها ـ في الغالب ـ مجردة عن التعليق، اذ هي في نظري من التهافت والسقوط بحيث لا تحتاج الى مزيد تعليق.

وأختم الحديث عن عقيدة السبئية بعرض ومناقشة قضية **احراق علي لطائفة من هؤلاء السبئية**، اذ أن هذه القضية ترتبط بحجم الفرية في حق علي رضي الله عنه، ومجاوزة الحد في الغلو المخرج لاصحابه من الملة، وهل بعد أن يعلم علي ـ رضي الله عنه ـ بأن هناك ـ من هذه الطائفة ـ من يقف على باب المسجد مدعين أن عليا ربهم، فيدعوهم علي ويقول لهم : ويلكم ما تقولون ؟! قالوا أنت ربنا وخالقنا ورازقنا، فقال، ويلكم انما أنا عبد مثلكم آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون، ان اطعت الله أثابني ان شاء، وان عصيته خشيت أن يعذبني، فاتقوا الله وارجعوا، فأبوا، فلما كان الغد غدوا عليه فجاء قنبر (مولى علي) فقال : قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام، فقال : أدخلهم، فقالوا كما كانوا يقولون، فلما كان الثالث قال : لئن قلتم ذلك لاقتلنكم بأخبث قتلة، فأبوا الا ذلك، فقال، يا قنبر : ائتني بفعلة معهم مرورهم فخدْ لهم أخدودا بين باب المسجد والقصر، وقال احفروا فأبعدوا في الأرض وجاء بالحطب فطرحه بالنار في الأخدود، وقال : اني طارحكم فيها أو ترجعوا، فأبوا أن يرجعوا، فقذف بهم فيها حتى اذا احترقوا قال :

اني اذا رأيت الأمر أمرا منكـــرا أو قدت نارى ودعـــــوت قنبرا[1]

وخبر احراق علي لطائفة من السبئية تؤكده الروايات الصحيحة، وكتب المعارف العامة، وأصحاب المقالات والفرق.

جاء في صحيح البخاري عن عكرمة رضي الله عنه : « أن عليا رضي الله عنه حرق قوما فبلغ ابن عباس فقال : لو كنت أنا لم أحرقهم لأن النبي ﷺ قال : لا تعذبوا بعذاب الله، ولقتلتهم كما قال النبي ﷺ : من بدل دينه فاقتلوه »[2]

وفي كتاب استتابة المرتدين عن عكرمة أيضا قال : أتى علي رضي الله عنه بزنادقة فأحرقهم، فبلغ ذلك ابن عباس فقال : لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي النبي ﷺ « لا تعذبوا بعذاب الله »

---

(١) ابن حجر : فتح الباري ج ١٢/٢٧٠ ـ واسناد الخبر حسن، كما قال ابن حجر.

(٢) صحيح البخاري ج ٤/٢١

ولقتلتهم لقول رسول الله ﷺ : من بدل دينه فاقتلوه »[1] .

و « ابن عباس » الذي خالف « عليا » في احراق هؤلاء ـــ كما جاء في الخبرين ـــ هو نفسه الذي نهى عليا عن قتل ابن سبأ حينما بلغه عنه غلوه فيه، وأشار عليه بنفيه إلى « المدائن » حتى لا تختلف عليه أصحابه، لا سيما وهو عازم على العود الى قتال أهل الشام..[2] .

ولفظه « الزندقة » الواردة في الخبر الثاني ليست غريبة على عبد الله بن سبأ، والسبئية، يقول الذهبي : عبد الله بن سبأ من غلاة الزنادقة، ضال مضل، أحسب أن عليا حرقه بالنار..[3].

ويقول ابن حجر : « عبد الله بن سبأ من غلاة الزنادقة.. »[4]، ويقول عن طائفته : « وله اتباع يقال لهم السبئية معتقدون الالهية في علي بن أبي طالب، وقد أحرقهم علي بالنار في خلافته »[5] بل ان احد معاني الزندقة : الادعاء بأن مع الله الها آخر ـ كما فسره بعض الشراح ـ[6] وهذا المعنى قال به ابن سبأ، وطائفته السبئية ـ كما تقدم.

وممن روى حادثة الاحراق أبو داود في سننه، في كتاب الحدود، باب الحكم فيمن ارتد[7] ورواها النسائي في سننه[8]، والترمذي في جامعه في كتاب الحدود، باب ما جاء في المرتد[9] وروى الطبراني في معجمه الأوسط من طريق«سويد بن غفله» أن عليا بلغه أن قوما ارتدوا عن الإسلام فبعث اليهم فأطمعهم، ثم دعاهم الى الإسلام فأبوا، فحفر حفيرة ثم أتى بهم فضرب أعناقهم، ورماهم فيها، ثم ألقى عليهم الحطب فأحرقهم ثم قال : صدق الله ورسوله[10].

---

(١) المصدر نفسه ج ٨/٥٠

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق ص ٢٢٥

(٣) ميزان الاعتدال ج ٢/٤٢٦، وحسب الذهبي في احراق علي لابن سبأ غير صحيح، لثبوت وجد ابن سبأ بعد موت علي، كما سيأتي عند الحديث عن احراق السبئية.

(٤) لسان الميزان ج ٣/٣٨٩

(٥) المصدر نفسه ج ٣/٢٩٠

(٦) ابن حجر، الفتح ج ١٢/٢٧٠

(٧) سنن أبي داود ج ٤/١٨٠ (المكتبة التجارية الكبرى بمصر)

(٨) سنن النسائي (المجتبى) ج ٧/١٠٤ (المكتبة التجارية الكبرى بمصر)

(٩) سنن الترمذي ج ٤/٥٩ (ط الحلبي)

(١٠)انظر فتح الباري ج ١٢/١٧٠

كما روى خبر الاحراق « أبو حفص بن شاهين »[1] بسنده عن الشعبي أن عليا حرق جماعة من غلاة الشيعة ونفى بعضهم، ومن المنفيين عبد الله بن سبأ..[2].

كما روى هذا الخبر : أبو عاصم خشيش بن أصرم[3] في كتابه « الاستقامة » وعنه نقله « أبو عمرو الطلمنكي الأندلسي (٤٢٩ هـ) في كتابه الأصول[4].

وقبل هؤلاء ذكر « ابن قتيبة » خبر الاحراق في أكثر من موضع، ففي المعارف : « السبائية من الرافضة ينسبون الى عبد الله بن سبأ، وكان أول من كفر من الرافضة وقال علي رب العالمين فأحرق علي أصحابه في النار »[5].

وفي تأويل « مختلف الحديث » ان عبد الله بن سبأ ادعى الربوبية لعلي فأحرق علي أصحابه بالنار[6]

وذكر « الجورجاني » خبر الاحراق هذا في كتابه : الضعفاء[7].

أما ابن تيمية فقد قال : انه ثبت عن علي أنه أحرق غالية الرافضة الذي اعتقدوا فيه الالهية[8] وذكر في موضع آخر أن الذين أحرقهم علي، قد سجدوا له، فقال ما هذا ؟ قالوا أنت هو، قال من أنا ؟ قالوا أنت الله الذي لا اله الا هو...[9].

---

(١) عمر بن أحمد بن عثمان بن شاهين البغدادي، من حفاظ الحديث، وصاحب التصانيف، حتى عدّله نحو من ثلاثمائة مصنف، منها التفسير الكبير، ومنها المسند، ومنها في « تاريخ أسماء الثقات ممن نقل عنهم العلم » مات سنة ٣٨٥ هـ. (طبقات الحفاظ ج ٩٨٧/٣، الاعلام للزركلي ج ١٩٦/٥.

(٢) منهاج السنة ج ٧/١

(٣) هو ابن الأسود النسائي، من حفاظ الحديث، وقال عنه ابن حجر : ثقة حافظ، من مصنفاته الاستقامة في الرد على أهل البدع، مات بمصر سنة ٢٥٣ هـ. (تقريب التهذيب ج ٢٢٣/١ الاعلام للزركلي ج ٣٥٣/٢ معجم المؤلفين ج ٩٩/٢.

(٤) ابن تيمية : منهاج السنة ج ٧/١

(٥) المعارف ص ٢٦٧

(٦) تأويل مختلف الحديث ص ٧٣

(٧) الضعفاء ص ٣/ب

(٨) الفتاوي ج ٤٧٥/٢٨

(٩) منهاج السنة ج ٨٣/١

أما أصحاب المقالات والفرق فيؤكدون خبر الاحراق، ومن هؤلاء :

الأسفرايني[١] ، والملطي[٢] ، والبغدادي[٣] والرازي[٤] .

بعد هذه النصوص، وبعد جملة تلك الاستدلالات ـ يبقى مجانبا للصواب رأي « الشيبي » القائل بأن خبر احراق السبئية مزعوم مخترع من أصله وأنه لم يرد في أي كتاب موثوق ومعتبر به من كتب التاريخ[٥] .

وحتى لو فرضنا ـ جدلا ـ أن قصد الشيبي ـ صاحب الرأي ـ بالكتب الموثقة لديه ما يخص كتب الشيعة ـ وهي التي ينتمي اليها الشيبي عقيدة ومذهبا ـ فان الرد لا يعوز الباحث اذ يجد في كتب الشيعة المعلومات الآتية :

جاء في شرح عقائد الصدوق « الحديث عن الغلاة من المتظاهرين بالإسلام الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته الى الألوهية والنبوة، فحكم فيهم أمير المؤمنين (علي) بالقتل والتحريق بالنار[٦] .

وفي معرفة أخبار الرجال : أن ناسا أتوا عليا وقالوا له : أنت أنت، فقال لهم : اني لست كما قلتم، انما أنا عبد مخلوق، فأبوا عليه، فقال لهم : ان لم ترجعوا أو تتوبوا لأقتلنكم، فأبوا ذلك، فأمر أن يحفر لهم آبارا فحفرت ثم خرق بعضها الى بعض فقذفهم فيها، ثم طمّ رؤوسها ثم ألهب النار في بئر ليس فيها أحد، فدخل الدخان عليهم فماتوا[٧] .

وفي « تنقيح المقال » أن عليا حرّق عبد الله بن سبأ، في جملة سبعين رجلا ادعوا فيه الالهية والنبوة[٨] .

---

(١) التبصر في الدين ص ١٠٨

(٢) التنبيه والرد ص ١٨

(٣) الفرق بين الفرق ص ٢٢٣

(٤) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٥٧

(٥) الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيع ص ٩٠.

(٦) الشيخ المفيد، شرح عقائد الصدوق ص ٢٥٧

(٧) الكشي : معرفة أخبار الرجال ص ٧١

(٨) المامقاني : تنقيح المقال ج ١٨٤/٢

واذا كان احراق علي لطائفة من السبئية قد ثبت بما لا يدع مجالا للشك ـ كما قدمنا ـ فان مسألة احراق عبد الله بن سبأ نفسه، مما اختلف فيه الآراء والتوجيهات، والقول الشائع المشهور هو نفي ابن سبأ دون احراقه، وفي ذلك يقول ابن قتيبة : « .. فأحرق علي أصحاب (ابن سبأ) بالنار »[1] ويقول الجوزجاني : ان عليا نفى عبد الله بن سبأ بعدما كان همّ به[2]، وفي المقالات والفرق أن عليا سأل ابن سبأ عن آرائه المنكرة فأقرّ بها، فأمر بقتله فصاح الناس اليه من كل جانب.. فسيره الى المدائن[3] وفي الملل والنحل : « السبائية أصحاب عبدالله ابن سبأ الذي قال لعلي كرم الله وجهه : أنت أنت، يعني أنت الاله فنفاه الى المدائن.. »[4] .. الى غير ذلك.

وهناك من وضع مسألة احراق عبد الله بن سبأ موضع الشك، وفي ذلك قال الذهبي : « أحسب أن عليا حرقة بالنار »[5].

أما الطائفة الثالثة فقد جزمت باحراق « ابن سبأ »، وممن قال بذلك الكشي، وقد نقل أكثر من رواية تنص على أن عليا حينما بلغه غلو ابن سبأ ودعواه الألوهية فيه، دعاه وسأله فأقر بذلك، وطلب اليه أن يرجع عن ذلك، فأبى، فحبسه، واستتابه ثلاثة أيام فلم يتب فأحرقه بالنار..[6]، كما قال بذلك ـ أيضا ـ المامقاني[7] كما تقدم.

واذا كنت أميل الى الرأي الأول (نفي ابن سبأ) فان مما يؤكد ذلك أخبار عبدالله ابن سبأ بعد موت علي، ويكفي الباحث ان يقف على هذه العبارة التي نجدها في كثير من المصادر، وهي قول ابن سبأ لمن جاءه ينعي علي : « لو أتيتنا بدماغه في سبعين صرة ما صدقناك، ولعلمنا أنه لم يمت، وإنه لا يموت حتى يسوق العرب بعصاه.. »[8].

---

(١) المعارف : ص ٢٦٧، تأويل مختلف الحديث ص ٧٣

(٢) الضعفاء، ورقة ٣/ب

(٣) القمي، المقالات والفرق ص ٢٠

(٤) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١/١٥٥

(٥) ميزان الاعتدال ج ٢/٤٢٦

(٦) رجال الكشي ص ٩٨، ٩٩، ١٠٠

(٧) تنقيح المقال ج ٢/١٨٤

(٨) انظر هذا النص عند الناشيء الأكبر (٢٩٣ هـ) : مسائل الامامة.. ص ٢٢، وانظر في دلالة العبارة، البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٣٤، ابن طاهر المقدسي : البدء والتاريخ ٥/١٢٩ وغير ذلك.

ويقول الصفدى (٧٦٤هـ) : « فلما قتل علي كرم الله وجهه زعم ابن سبأ أنه لم يمت لان فيه جزءا الهيا.. »[١] .. الى غير ذلك من النقولات التي تثبت وجود ابن سبأ بعد موت علي...

نماذج من السبئية ومكائدهم للمسلمين

١ ــ كنانة بن بشر التجيبي (٣٦هـ)

وهو أحد قنائص عبد الله بن سبأ في مصر[٢] وكان أحد النفر الذين استمالوا عمارا حين بعثه الخليفة عثمان رضي الله عنه ليتبين حقيقة ما يشاع في أقطار الخلافة من بوادر الفتنة[٣]. ثم كان أميرا على أحد الفرق الأربع التي خرجت من مصر في شوال سنة ٣٥هـ للزحف على المدينة[٤] كما كان له دور بارز ضمن الذين حاصروا عثمان في داره، فهو في طليعة الذين اقتحموا الدار على عثمان، وبيده شعلة من نار، ثم دخلت الشّعل على أثره تنضح بالنقط، حتى اشتعل الخشب والخليفة يقول : ما بعد الحريق شيء !![٥].

وأخيرا استشهد الخليفة عثمان بسهام الموتورين، وكان من أبرزها سهام « كنانة » حتى قال عبد الرحمن بن الحارث (٤٣هـ) : الذي قتل الخليفة كنانة بن بشر بن عتاب التجيبي[٦].

وكانت امرأة منظور بن سيار الفزاري تقول : خرجنا الى الحج، وما علمنا لعثمان بقتل، حتى اذا كنا بالعرج سمعنا رجلا يتغنى تحت الليل.

ألا ان خير الناس بعد ثلاثة قتيل « التجيبي » الــذي جاء من مصر[٧]

كانت نهاية كنانة سنة ٣٦هـ، حينما طلبة « معاوية » بدم عثمان، وقبض عليه بمصر، وسجنه مع من سجن بفلسطين فهربوا من السجن، فأدركهم والي فلسطين فقتلهم[٨].

---

(١) الوافي بالوفيات ج ١٧/٢٠

(٢) محب الدين الخطيب. حاشية العواصم من القواصم لابن العربي ص ١١٢

(٣) تاريخ الطبري ج ٤/٣٤١

(٤) المصدر نفسه ج ٤/٣٤٨

(٥) المصدر نفسه ج ٤/٣٨٠

(٦) المصدر السابق ج ٤/٣٩٤

(٧) المصدر نفسه ج ٤/٣٩٤

(٨) الزركلي : الأعلام ج ٦/٩٤